حيـــــاة

إيمان المازري

حيـــــاة
المؤلفة : إيمان المازري

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : ديسمبر 2016
رقم الإيداع : 2016/26304
الترقيم الدولي : 978-977-769-162-8

توزيع السودان: أماني أبو الريش
00249118776697

جميع حقوق الطبع محفوظه

الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : 02)23963002)

قل للحياة:
سيري ببطء يا حياة لكي أراكِ بكامل النقصان حولي.
كم نسيتكِ في خضمكِ باحثاً عني وعنكِ.
وكلما أدركتُ سراً منكِ قلتُ بقسوة ما أجهلكِ

محمود درويش
من قصيدة: الآن.. في المنفى
ديوان: كزهر اللوز أو أبعد

الإهـــداء

إلى
أمي الحبيبة عائشة أحمد
شقيقاتي الجميلات

(كل الأحداث والشخصيات من خيال المؤلف ولا علاقة لها بالواقع، وأي تشابه هو فقط وليد صدفة).

إيمان المازري

الرحلـة الثانية قبل الموت (حياة)

هل هو موت سعيد أم موت تعس...؟ ذاك الذي يقرر مباغتتنا وقتما أزفته المشيئة الإلهية...؟

هل نختار مداراة أسقامنا حين كفن، نحشو أطرافنا بالقطن المعطن بالمحلب...؟

أذكر جيداً موتي، أتذكرون تفاصيل دفنكم...؟

نحنُ أحياءٌ وباقون.. وللحلمِ بقيّهْ

لـــ«درويش».

الفصل الأول:

رســـالـــة إلى حمـــزة:

ليس في الموت سبيل للهرب... هو فقط رائحة صبر ووداع بطقوس مهيبة...

سنترافق سوياً إلى حيث نجد متعتنا ونرقص حين هفوة...

سلام

ونحن لم نحلم بأكثرِ من حياةٍ كالحياة...

لـ«**درويش**».

الثلاثاء من ربيع مايو 1990

عزيزي حمزة... اشتقتك جداً

أتعلم... لم يكن الموت يوماً فعلاً مستعصياً، الاستعصاء يكمن في تقبلنا للموت... استعدادنا له، بالأحرى انتظارنا له...

لكني يا حمزة لم أنتظر الموت بما يكفي، لم أُعدّ نفسي للوداع كما يجب، ساورتني الغفلة حين كنت ابنة الخامسة عشرة، كنتُ طفلة تهفو لأرجوحة، وسعيت لطفولتي بكل سذاجتي...

حمزة... لم أتقبل بعد فكرة التسرب بين مسامات اللاوجود، أظنني لا أحبذ فكرة الوداع لكني مجبرة على التلويح برسائلي، لقد حاولتُ كثيراً أن أكون منطقية في حالات انفصالي وترددي ووجدتني غير قادرة على الوفاء لابتسامة... كلهم راحلون يا حمزة، ميتون يا حمزة... تلك الشجرة التي احتملت تفاصيلي وانزعاجي وسعادتي أجلس اليوم على ما تبقى من رمادها، لم تعد ظليلة كما عهدتها، أصبحت شاحبة بأوراق صفراء وجذع ينكمش على ماضيه، هي تندب عجزها وتفخر بصباها، لقد كبرنا سوياً... بين ظلالها مارستُ كل طقوس طفولتي وتعددت أحلامي بصحبتها إلى حين مراحل مراهقتي مع نور الدائم... أول قبلة لي كانت بين فرعها الأوسط وخماري الأصفر المعلق بعناية ليحجب عنا

المارة المتطفلين... هي شجرة اللبخ الساكنة في الطريق إلى مدرستي في الكمبو...

أتسمح لي يا حمزة أن أودعك برسالة...

صباح ممطر يختلف عن صباحات مايو الحارقة، الغمام لا يزال يرسم مساحة من التفاؤل على ظلال باب البيت، هناك وفرة من الهدوء، رائحة التراب تتسرب رويداً إلى رئتيّ، النعاس يحاصرني، أتقلب على فراشي بمتعة، أفرد رجلي وأتمطى بسعادة، ليس هناك ما يدعوني للنهوض مبكرة، فاليوم جمعة، وليس لي واجب عليّ تأديته غير النوم، أتنفس بقوة وأعطس حينما يلفحني الدعاش المخلوط بروث أغنام حاج مكي، أحاول تغطية أنفي بالوسادة فيرتفع صوت حاجة نفيسة وهي تنادي على دجاجاتها وديكها الوحيد (كر كر كر)، تزداد رائحة الروث مع ارتفاع صوت بكاء منى ابنة سعدية حفيدة حاجة نفيسة، ما زلتُ في محاولاتي الجاهدة إلى الخلود في نصف حلم وما زالت الأصوات تعلو، وعلى حافة سريري يطرق أبي بعصاه الحديدية فأسكن تماماً عن الحركة، ويزداد الطرق قساوة وتزكم أنفي رائحة الروث، ثم لا يلبث أن يقفز فوقي ديك حاجة نفيسة في محاولته للهرب منها وتبدأ المطاردة، يتبعهم نباح جيمي كلبهم الأعرج وقطتهم الزائغة...

أجلس القرفصاء حزينة مغمضة عينيّ لأكمل ما تبقى لي من نعاس، يأتيني صوت قهقهات أبي فأستعير مسحة غضب على ملامحي ثم أعدو إلى غرفتي حاملة وسادتي لأكمل ما انقطع من حلم كنتُ فيه بصحبة

أمي وأخي حمزة... كان حلماً جميلاً، كنتُ أركض في حديقة غناء، أحدث الطيور، أقطف قطرات الندى من على بتلات الأزهار، فتبتسم أمي في أمل، وكان حمزة يحملني تارة ويمسك معصمي تارة أخرى، نركض كيافعين، حمزة في عمر الشباب وأنا في الثامنة عشرة إلا خجل، تلوح لنا أمي من بعيد فيسرع حمزة محاولاً تلبية النداء، أبحث عنه بين الأشجار البازغة فيختفي، أعاود البحث كثيراً ولم يحالفني الحظ بلقاء يتيم لأمي وأخي، أجلس منهكة الشوق أسمع صوت بكاء طفل تحت شجرة اللبخ، فجأة يتغير المكان، يتغير الزمان، من تلك الحديقة إلى الكمبو، صرخات متتالية تخترق أذني فأهرول في رعب وأنفاس متقطعة... أجدها مسجاة على ورق كرتون ملفوفة بقماش أبيض، ثم أصحو... لا أذكر كم عدد المرات التي تكرر فيها ذلك الحلم، وعلى الرغم من كل شيء لم أبح به لأحد حتى لصديقتي سارة ابنة جارتنا عواطف صديقة أمي المتوفاة...

ـــ حياة يا حياة يا حياة يا بت، نمتي تاني...؟

ـــ نعم يا أبوي!

يبتسم معانقاً نعاسي وكسلي، فأعانقه رهبة، يجلس على حافة سريري ببطء محاولاً عدم إحداث جلبة بواسطة عصاه الحديدية، يجاهد في الجلوس مستقيماً، ثم بصوته الرخيم يقول...

ـــ الصباح دا مشتهي لي شاي من يديك الحلوين ديل، خالتك عواطف جابت لبن من غنمايته الدارة داافئ.

ثم يعانقني بعينيه مشجعاً، أتمعنه ملياً وأحفظ ملامحه الهرمة عن ظهر

وجع، عيناه ما زالتا غائرتين مع جبهة عريضة وذقن بارز بوجه مستدير وشعيرات متفرقة على شاربه ورأس أصلع، ثم أبتسم في صمت...

ـــ حياة يا بنتي، يلا قومي عشان نجهز للصلاة، الليلة أولاد الخلوة عندهم ختمة...

ـــ سمح يا أبوي!

ينهض أبي من على فراشي بحذر، يضرب بعصاه ويحركها يمنة ويسرة على أرضية الغرفة وهو يتلو أذكار الصباح... أبي كعادته منذ أكثر من عشرة أعوام يوقظني يوم الجمعة لنشرب الشاي سوياً ثم نكمل باقي يومنا ما بين الخلوة ومنزل خالتي عواطف مربيتي بعد وفاة أمي.

توفيت أمي وأنا في عمر الثامنة، ذكرياتي عنها مشوشة، كانت تقضي جل وقتها مع والدتها المريضة، صمم أبي على عودتنا إلى الكمبو بعد خلاف كبير نشب بينه وبين خالي الماحي لا نعلم عن تفاصيله شيئاً، ذاك الخلاف أدى إلى طلب أمي للطلاق، أصر أبي على حق تربيتنا بعد الطلاق وأصرت هي على الطلاق، كنا وحمزة ورقة الضغط التي ظن بها أبي أنها سترجح كفته، لكن أمي كانت قد صممت على الطلاق وبلا هوادة، لم يكن أحد من أهل الكمبو يعلم عن سبب انفصال أبوي وكان هذا غريباً، فمجتمع القرية متماثل متشابه صريح حد التخمة، كان ما بينهما من حب ومودة فيما مضى هو ما جعل الجميع يتعجب من ذلك الانفصال المفاجئ.

كانت أمي تأتي لزيارتنا مع أخيها الماحي كل يوم ثلاثاء لئلا تلتقي بأبي في يوم العطلة، لم نكن وقتها نعلم عن ماهية علاقة مجروحة بفعل محرم، حمزة

كان في الثانية عشرة، كان يعي كل شيء ويسترق السمع أثناء نقاشات خالي الماحي وأمي، أسرني ذات مرة أن أمي قد كرهت أبي ويمكنها أن تقتله، يومها طاردتني الكوابيس المتلاحقة ولم أنم إلا بعد جهد جهيد، لم نكن نفهم ما قالته أمي جيداً، فالغضب جعلها تتمنى موته، هي الطفولة ما دفعتنا للتفسير حرفياً، كنا سعداء بالفطرة تعساء بالقدر... طفولتنا كانت في صراع دائم بين المدينة والكمبو، ليس هناك من عيد يمر علينا ونحن لم نتكافأ ببكاء إثر مشاحنة بين أب وأم آثرا سعادتها علينا، عشر سنوات مرت كما اللحظة فيها بزخ من شجن الفراق، كانت الأيام كريمة معنا بذكريات تروض أحلامنا على التأقلم بواقع مؤلم مسرف في السقم، هي أضرحتنا مكيدة أفعالنا، سنوات شقاء وموت مؤجل...

ـــ حياة سلام

خالتي عواطف أمي الثانية، أتنفس رائحتها من على بعد شوق وترقب، يسبقها سعالها في تحيتي فهي تعاني من الربو، والصباحات الماطرة تبادر في إيقاظ شهوة حساسيتها فتتقبلها بامتعاض وتتقبلها برضا وابتسام، أسترق السمع لصوت تحيتها لأبي ثم ينخفض الهمس تدريجياً فأتعمد إحداث جلبة بالأواني فينكتم صوتها وتأتيني مهرولة...

ـــ بنتي السمحة حياة، عملتي الشاي لابوكي عشان نشرب سوا

ثم تبتسم في وجه حيائي معانقة حشرجتي بحب، وتبادر في إعداد الشاي وأنا أراقبها في صمت وحسرة وأتمناها أمي، تندفع سارة بقوة لتصطدم بباب المطبخ لاهثة لتقول:

ـ أمي إنتي جيتي هنا...؟

نضحك ثلاثتنا في مزاح... سارة كل يوم جمعة تفتعل دوراً جديداً لمباغتة خالتي عواطف، هي مرحة صبورة جميلة، لم يكن هناك شاب في الكمبو إلا وقد قدم أوراق مرافعته إلى خالتي عواطف طلباً في زواج سارة، ولم تزل منصة الحكم تحكم غيابياً بالرفض بدون استشارة سارة، فأبي وخالتي عواطف هما المتصرفان بشؤوننا الحاكمان بأمرنا، لم تكن لنا عريضة نقدمها في حكم استئناف، تقبلنا حريتنا وفقاً لمعاييرهم، انزوينا بصداقتنا عن جميع البنات في مثل سننا، فبنينا لنا داراً من حب نصُب فيه نزوات مراهقتنا بحكاوينا عن نور الدائم وحسين، سرجنا أحلامنا في الانتقال إلى الخرطوم لدخول الجامعة وعلى صهوة الطموح أسرفنا في الأحلام حدّ الخيلاء، كان عالمنا المؤقت هو نتاج حريتنا المتكافئة بصفة الغياب مع صوتنا الصامت خوفاً، هو سر بائن بيننا خوفنا من العقاب، عقاب الفراق فكل واحدة منا قد اختبرت الفراق في سن مبكرة...

مات والد سارة وهي في بطن أمها، كانت أولى صرخات سارة بكاءً على فقد والدها، ففي يوم ولادتها مات أبوها، تربت سارة حتى سن السادسة في كنف أهل والدها، وكعرف في الأسرة صمم جدها لأبيها بتزويج خالتي عواطف لابنه البكر، لم يكن هناك من سبيل للاعتراض غير الصمت والبكاء، لكن ذاك القرار كاد أن يودي بحياة سارة، فالغيرة قد تنهش لحم القربى، زوجة عمها حين غيرة من خالتي عواطف خلطت اللبن بالصبغة وسقته لسارة شربة واحدة، ولولا تقدير الله وإسعافها

بغسيل معوي لكانت سارة من سكان القبور بجوار حمزة وأمي، تلك الحادثة قد أدت إلى انفصال هادئ بين عواطف وأسرة زوجها، ومنذ اثني عشر عامًا تسكن خالتي عواطف مع سارة في منزل زوجها بنفقة ومؤونة أهل زوجها، كانت تلك الحياة المترفة في الغيرة بين خالتي عواطف والزوجة الأولى لعم سارة قد أفضت إلى عزوفها عن الزواج، تدربت على الحياة بقسوتها ومرارتها، أسست لها عملاً بالكنتين في منزلها، راجت تجارتها وتحسنت أحوالها، فكفتهم عن الحاجة لنفقة واجب واستحسان من أهل زوجها....

ـــ الشاي جاهز، يلا يا بنات جيبن الزلابيا وتعالن....

وترمقني بابتسامة مشجعة وتقول:

ـــ حياة، أبوك منتظر الشاي، ناوليه وتعالي...

أحمل صينية الشاي بيدي اليمني مع صحن الزلابيا باليدّ اليسرى وأتجه إلى غرفة أبي التي يتخذ منها خلوة له، تلك الغرفة تطل على باب المنزل بسوره الخفيض، لها نافذة واحدة تفتح مصراعيها على المسجد صممها لتكون وسيلة مراقبته للأطفال أثناء تحفيظ القرآن في ساعات استراحته لئلا يضطر أن يذهب إلى المسجد، لها سقف من القش والمشمع ليقيها المطر الذي يعاودنا قليلاً في الكمبو، أطرق الباب بحذر وأنتظر بهدوء لأسمع همهمات تسبيح أبي وأطيل في انتظاري رأفة ولوج ثم يأتيني صوت أبي ليمنحني إذن الدخول...

أطأ الغرفة برهبة أنظر أسفل قدمي باحتراس، فالمسافة بين عتبة الباب

والغرفة بئر سحيقة أتنفس رائحة الند والجاولي واللالوب ثم أشاهد في ركن الغرفة إبريق الحديد بتصميمه الحجازي وخاتمه الذهبي الذي يزين وسطه بحلقة متعرجة، يشير علي أبي بوضع ما أحمله على المنضدة قبالة سجادة الصلاة التي يجلس عليها وأفعل ذلك في صمت، أدور ببصري إلى البرش المعلق على حائط الغرفة وأجده يرقد في حياء، ثم يقع صمتي على السرير الوحيد الذي يتوسط الغرفة فأقلب صفحة وجهي وأهم بالمغادرة، لكن أبي يستوقفني بحشرجة وهو يناولني إناء الماء الفارغ فأحمله في تردد وأتنفس صعداء ضيقي في الفناء أمام منزلنا الوحيد قرب المسجد...

يقع منزلي بالقرب من ضريح شيخ أحمد تمساح، يطل على مساحة واسعة من الفراغ في الجهة الأمامية، المسافة بين أقرب حمام لتقضي به حاجتك ومنزلنا تفقدك الرغبة في الحياة، يجب عليك حمل إبريقك والذهاب أمام الناس لتلبي نداء الطبيعة، هذا المشهد قد بات اعتياديا بين سكان الكمبو، وهو من مظاهر الكمبو المتعددة كشيخ أحمد تمساح الذي أعطى للكمبو صيتًا وشهرة.

وبحسب الرواية المتداولة التي تناقلتها الأجيال، فقد ولد شيخ أحمد الرضي مع عشرة أشقاء من الذكور جميعهم توفوا قبل بلوغهم سن السابعة إلا هو، فقد كان لحرز الناقة، وهو من الأذكار الشهيرة التي تُقرأ للصبية ما قبل سن بلوغ الحلم، أثره، ذاك الحرز الذي يردده حاج الرضي كما تتناقل الروايات كان له من السحر ما جعل الصبي أحمد شيخاً وصاحب كرامات ومعجزات، تقول الرواية إنه في ليلة من الليالي

القمرية منتصف رمضان، والجميع في صلاة التراويح بالمسجد، كان أحمد ذو الستة أعوام يجوب قفار الكمبو بحثاً عن لا شيء، لم يفتقده أحد إلا بعد مرور زمن متوجس على غيابه، شمر الجميع للبحث عنه وبعد يأس من البحث فيما يقارب الثلاث ساعات وفي غمرة بحثهم يأتيهم صوت نداء من المساحة الخالية التي بني عليها المسجد فيما بعد الذي يطل على منزلنا الآن، يهرول الجميع إلى موقع الصوت ليجدوا شيخ أحمد يجلس بجانب تمساح، كانت مفاجأة وفاجعة فلم يجرؤ أحد على محاولة الاقتراب أو حتى إصدار صوت، كان شيخ احمد يجلس هادئًا في ظلام الكمبو، وتنعكس على الأرض قربه تضاريس جسد تمساح، يراقب الجميع في صمت وهدوء، إلا أن زوبعة الرياح وصراخ أم شيخ أحمد أيقظت تأملاتهم...

حاجة خديجة لم تكن تعلم أن تمساحاً يجلس في قفار الكمبو اليابسة، لم تعلق انتظارها على مشجب الخوف اقتربت مندفعة نحو ابنها الذي ظل صامتاً، وفي غمرة قوة اندفاعها يقولون إن التمساح تحرك ناحيتها لتتراجع مذعورة، لكن الصبي أحمد يضع يده على ظهر التمساح فيسكن حجراً... ومن يومها صار حجر التمساح مزاراً للجميع من كل القرى والحلال المحيطة بالكمبو، وأمسى أحمد شيخ أحمد تمساح وهو لم يتجاوز السادسة من العمر، ووفاءً لكراماته تم بناء المسجد عليه...

ـــ حياة.. الشاي برد.. تعالى بسراع !

سارة لا تزال في مهد حبها للحياة تكثر من النجوى، تمنحني شهيقاً من

الأمل، وتهبني الكثير من الشجن، حبنا للحياة التي شيدناها في أحلامنا جعلنا نتناسى ما يعيق يومنا من مصائر محتومة مدرجة في كتاب أجيال الكمبو، سعدنا بطموحنا ومغامرات نور الدائم وحسين، يوم الجمعة لنا فيه وقت محاصر من أحباء ينتظروننا على شجرة اللبخ التي تقع في الطريق إلى المدرسة، قُبيل النداء الأول للصلاة نتحين الفرصة المواتية لنذهب إلى حال الشوق نختبر به أنوثة مستترة ورجولة خشنة موسومة بفعل معصية شفيف لمراهقتنا...

شجيرات اللبخ تقف متفرقة محاصرة الطريق على طوله مع بعض شجر الحسكنيت والأشجار الشوكية وحشائش القنا الموسمية التي يبلغ طولها من 16-8 متراً والتي تنمو في فصل الخريف الذي حل علينا مبكراً هذا العام، تلفحنا بثيابنا وامتطينا شغفنا إلى مغامرة مع أعزاء لنا في حالة جنون، كانت شجرة اللبخ تحتفظ لنا بظلال يسيرة تمنح خلوتنا حصانة، فعلى امتداد خوفنا تتدلى أفرعها مفردة حنانها بجذعها العميق الضارب في الأرض أطنابه، تحاشينا الفروع المتساقطة برفق وجلسنا نرفع أكف ابتسامتنا بترقب...

يوم الجمعة يتميز بنكهة هدوئه الخاصة، فالطريق إلى المدرسة يخلو من المارين، لذا تخيرنا شجرة اللبخ لتكون ملجأ لنا عند هذيان شوقنا بحثاً عن نجوى تسامرنا فيها رياح الصعيد، وتتواتر معها دندنات الطيور المهاجرة مع ساكنات الشجرة من طيور القماري، تتبعنا ملامح الظهيرة بقلوب جزلة في انتظار شوق يكافئ حاجتنا لنور الدائم وحسين... وعلى أفق

أنفاس رؤيتنا أطل علينا نور الدائم وحسين بظلالهم المسرعة، خفافهم البلاستيكية ترسم خيوطاً متعرجة على الأرض، والعراريق تتطاير بين ثنايا أفخاذهم ليحاصروها بأيديهم بحثاً عن مساحة تضج بها ألسنتهم التائهة استغاثة من خوف... ابتعدت سارة إلى ركنها المعهود والتف على إثر ذلك حسين مفارقاً نور الدائم ليلتقي محبوبته سارة، جلستُ القرفصاء أترقب نور الدائم الذي يتعمد البطء في الاقتراب من ركننا المبارك كما يسميه، تنحنح بصوته الرقيق ثم أتبعها وهو يقول :

ـــ طق، طق، طق... أهل البيت دستور !

وأضحك بكل ما أوتيت من شوق وغنج، يسقط نور الدائم خجله في بئر سحيقة ثم يجلس قربي يحدق في الفراغ بيننا... نحلم صامتين ونغفو على رمش حاجتنا لعناق، نغني نرقص ونشدّ أنفاسنا بعد هرولة، يطوف نور الدائم بجسدي ويغمض أحلامه على صمتي، يقول في شجن:

ـــ حياة، أتعلمين؟

أهز رأسي نفياً، يرخي أجفانه في مودة يمعن النظر إلى شفتيّ وهو يردد :

ـــ أولا تعلمين، يا حياة، أنكِ حياتي؟

يتأوه في قسوة، وأتململ في بطء...

ـــ أولا تدركين، يا حياة، أن على شفاهك تنمو شجرة توت، وبين عينيك يرقد طفلنا في متعة، وعلى جبينك تمتد مدن، وفوق خدودك يعلن آخر حراس روما أن المدينة قد أعلنت استسلامها، وأن أنفك هو فرس رهان بيني وابنتنا...

ثم يواصل تلاوة أشجانه، وأستمتع أكثر...

ـــ حياة، أنتِ مرمية عاجية، لينة ساحرة، أولا يرتد طرفك حين تقفين في صلاتك صامتة، تستقبلين القبلة في خشوع ثم تسجدين وتركعين، وكفلك يفتتح مدناً محصنة، وخصرك يستدرج لويس السادس عشر لثورة جديدة، أولا تنصتين يا حياة إلى صوت مزمار أنفاسك وهو يهجو لعنة الكمبو ولياليه القاحلة...

وأتأوه شهوة، ويتأوه حباً، ثم يقف فارداً زراعيه ناصباً طوله في حركة مسرحية وهو يقول:

ـــ حياة.. أتسمحين لي أن أحمل تميمة من شفاهكِ، أن أتوسل إلى أذنكِ بشوق...؟

فأبتسم رغماً عن خوف، وأقف شغفاً إلى عناق، ثم يدنو مني في تردد ويهمس في أذني:

ـــ حياة المرمرية أحبكِ...

ويبتعد بخطوات متعجلة، يقف خاشعاً في صمت أمام الشجرة كأنما يواصل تلاوة ما انقطع من حنين بيننا، أراقبه في دفء يلحق به حسين بعد دقائق ويغادرا الشجرة بعد أن نكون قد ارتوينا حباً وتمرغنا شهوة...

طريق العودة إلى المنزل أكثر هدوءاً مع نداء الإقامة للصلاة، تلوح لنا من على البعد سراب الجلاليب البيض في حركة دءوبة نحو المسجد، نخفف من وقع خطواتنا لئلا نصطدم بعمامة تبحث عن حدث تزين به موائد سهرات الكمبو، استمعنا إلى صوت أبي خاشعاً وهو يقرأ فاتحة سورة

البقرة، فيسكن الكمبو عن بكرة طيوره وحشائشه، أرافق سارة إلى منزلها لنعد طبيخ الغداء معاً، فيوم الجمعة له طقس مختلف، في الغداء أوصتنا خالتي عواطف بعمل طاجن القرع مع عواسة الكسرة التي تمهر سارة في إعدادها، قسمنا العمل بيننا وأنجزناه في سرعة، لحقت بنا خالتي عواطف وهي تحمل صينية مليئة بالبليلة، وهي الوليمة المتفق عليها لطلاب الخلوة بعد الصلاة، كنا سعيدتين ننعم بالحياة أكثر... بعد انقضاء اليوم وعند المساء الذي دائماً ما نقضيه في منزلي ومع تمطقنا بصوت أكواب شاي اللبن جاءت خالتي عواطف لتقول:

ـــ الليلة عاد بسحروكنْ، نشاط وقضيتنْ شغلتكنْ سرعة سرعة...

نبتسم في حياء بعد أن نتبادل نظرات صامتة، لننفجر مقهقهتين، وتدور الدائرة بيننا في سجال ومدافعة عن حقوقنا المصيرية، لنبرر أننا دائماً ننجز ما يُطلب منا من عمل ولا نكل قوة ولا نمِل إنصاتا، تربت على حُجتنا خالتي عواطف وهي تقول :

ـــ أحمدك يا ربي الله أداني بنتين زي العسل...

وتنظر للسماء الرحيمة فتتدحرج دمعة صامتة تلمع في حلكة تلك الليلة عاكسة ألَمَا غائرًا على وجهها، نصمت وفي صمتنا رحمة ومواساة، يُقبِل أبي تسبقه عصاه الحديدية ليشكر خالتي عواطف على البليلة، ننكفئ على حزننا واجمتين، ليقطع ابتهالاتنا أبي:

ـــ أم سارة.. البت عليها مدرسة الصباح...

وتصلنا رسالة أبي المواربة بضرورة الوداع، يردد حمارنا نهيقه وتثور

غنيمات حاج مكي بثغائها آذنة للنوم، ثم من أعلى السور ينادي حاج مكي أبي وهو يقول:

ـــ الإمام صاحي؟

يستدير أبي ويتحسس الطريق بعصاه إلى مصدر الصوت، نسمع همهمة خفيضة بين أبي وحاج مكي، ليقطع ترقبنا ديك حاجة نفيسة وبكاء منى لنصدر ضحكة مترددة لتملأ سماء الكمبو الرحيمة...

استلقيتُ على فراشي منهكة القوى، أتحسس المسافة المقفرة بين المنازل وصحن المسجد الذي يبدو أكثر وضوحاً الآن، أراقب حركة بطيئة في منزل طلاب الخلوة المطل على المسجد، أستمع لحفيف ثعبان ومواء قط متقطع، صياح ديك، وخوار ثور يأتي من عمق... أحاول تجنب التفكير في ما أسمع، ثم أخلد إلى النوم وأحلم بأنني كنتُ أركض في حديقة غناء أحدث الطيور وأقطف قطرات الندى من على بتلات الأزهار فتبتسم أمي في أمل، وكان حمزة يحملني تارة ويمسك معصمي تارة أخرى نركض كيافعين، حمزة في عمر الشباب، تلوح لنا أمي من بعيد فيسرع حمزة محاولاً تلبية النداء، أبحث عنه بين الأشجار الباذخة فيختفي، وأعاود البحث كثيراً ولم يحالفني الحظ بلقائهم، أجلس منهكة الشوق لأسمع بكاء طفل تحت شجرة اللبخ، فجأة يتغير المكان، يتغير الزمان، من تلك الحديقة إلى الكمبو لأستمع إلى صرخات متتالية، فأهرول في رعب وأنفاس متقطعة وأجدها مسجاة على ورق كرتون ملفوفة بقماش أبيض وأصحو...

سبعة وعشرون حلمًا وخوفًا، أكثر من ثلاثة أشهر ويعاودني نفس الحلم

وينقطع بذات الطريقة، بدأتُ أقلق أكثر والخوف صار يتسرب إلى، لكني أخاف من قص رؤياي على أحد، فالجميع في الكمبو قد أنهكتهم ذكرى مصير أمي وحمزة الفجائعي، كان ذلك قبل عشرة أعوام من عمر الخطايا، في يوم جمعة ليلة النصف من شعبان، الجميع يترقب الشهر الفضيل، كانت قد بدأت تدب الخلافات بين أبي وأمي في صمت، ولم يلحظ أحد ذلك إلا حمزة الذي كان يخبرني بما يسمع حين تسخط أمي.

ظهيرة الجمعة ذهب أبي إلى المسجد كعادته وتركنا في المنزل بعد زيارة أمي المفاجئة لنا، أعدت لنا طعاماً شهياً في ذلك اليوم ومن بواقي عواسة الآبري استعملت الخرات وأعدت لنا عصيدة لذيذة تناولناها وحمزة في تسابق، خلدتُ إلى النوم سعيدة لم أستيقظ إلا على صوت عويل حاجة نفيسة وهي تقف على رأس أمي ممددة على فراش في الراكوبة المُلحقة بالمطبخ، يخرج الزبد من فمها وبجوارها على الأرض حمزة يزبد هو الآخر، كان منزلنا بعد صافرة الإنذار التي أطلقتها حاجة نفيسة لا يتسع لخرم إبرة لتقف به نملة، جيء بابن حاج مكي دكتور عثمان، وهو الطالب في كلية الطب، ليفحص أمي وحمزة، عاينهما دكتور عثمان في خوف ثم رفع كلتا يديه ورماهما في حزن بهزة من كتفيه معلناً انتحار أمي وحمزة بكوب لبن كان ملقى بقرب السرير...

لم تكن هناك تحقيقات من الشرطة أو أسئلة، الكل قرر أن أمي ماتت منتحرة، وأن حمزة قد لحق بها بدون علم منه بعد شربه من ذات كوب اللبن المسموم، ولم تتجه أصابع الاتهام إلى أحد، دون الكمبو الوفاة تحت

بند مجهول، وتمت مواراة الجثمانين في صمت، ولم يبحث خالي الماحي عن أسباب موت أمي وأخي، تقبل الأمر بقراءة الفاتحة صامتاً محتسباً وانقطعت أخباره عنا... وعلى الرغم من الصمت والحداد المُعلن إلا أن تلك الحادثة صارت حديث الكمبو لشهور تلت، الجميع تحدث عن أمي، منهم من حاول سبر أغوار صمتها وألّف عنها نوادر ومغامرات وحكايا، ولم يسلم حمزة من القصص أيضاً، فأصدر أصدقاؤه الكثير من المزاعم عن ظهوره في كل مساء الخامس عشر من ليلة قمرية ليذكرهم به...

غفل الكل عني إلا خالتي عواطف التي صارت لي أماً، احتملت فيه شهور خوفي وأحلامي المترددة، صراخي، كوابيسي، وحاجتي لعناق أب يطمئنني، لكن أبي كان بعيداً سارحاً في ملكوت رحمة حبه، أبي تعلق بحزنه وتعلقت به الأفكار والهواجس التي لم نكن نعلم عنها شيئاً، لم يكن يبوح بدمعه إلا لخالتي عواطف، لذا احترم الجميع صداقتهم الناضجة وحبهم الصامت، انقطع أبي عن كل شيء، لزم حزنه ولزمته لعنة الذنب الذي لم نكن نعلم عنه شيئاً، ففقد بصره بارتفاع داء السكر الذي أسكنه المشفى عقب وفاة أمي لأكثر من شهر...

طوال سنين طفولتي بعد وفاة أمي لم يستطع أبي بناء جسر بيننا، لم يملك وقتاً لهدم بركة نضبت من الحب بيننا، لم يسع أن يمنحني طوقاً من النجاة ولا شريطاً من الذكرى يليق بمراهقة، كبرت بعد أن اتسعت الهوة بيننا، وأكثرت من الصمت لتبرير فعل مشاغب لمراهقة حين يستفهمني أبي، لعل أبي حاول أن يمسح تفاصيل فجيعة موت أمي لكنه فشل في منحي

عناق أب لابنته الوحيدة، أعلن فشله صامتاً وزهد في النساء بسواد عينيه، كان آخر ما يودعه كل ليلة هو تصوير لأمي بحجم الباسبورت تسكن في جزلانة ولا تفارقه، يمعن النظر فيها ويتحسس ملامحها دامعاً، كنت أراقبه متوجسة إلى أن تعودتُ على ذلك، وصارت مساءات أبي بصحبة نحيبه الصامت هي تفصيلة من الأصوات التي أغفو عليها كل ليلة، كبُر حبي لخالتي عواطف أكثر بعد رفضها الزواج من أبي بعد مشورة حاج مكي له، احترمتها أكثر وبنيتُ ثقة بيننا أعمق، فلم أكن لأسمح لأي امرأة ببعثرة زوايا أمي في منزلنا، لم أكن لأدع رائحة أمي تغادر منزلي مهما يكن الثمن...

ذهبتُ إلى المدرسة خائفة بعد تكرار الحلم، عقدتُ النية على قص رؤياي على سارة، لكني التزمتُ الصمت عندما دخلتُ إلى الفصل وتفرستُ بملامح بنات خالة سكينة وسعاد اللائي يتوجسن مني كأنما تكررت قصة أمي أمامهم بالأمس، ولعل سبب ذلك هي صداقة خالتي سكينة وسعاد وأمي، ولهذه الصداقة مساوئ كثيرة، فبعد تلك الحادثة عاست صديقتا أمي حكايا ورؤيا حتى زعمنْ زيارتها لهنّ في المنام، وتشبعت بناتهن بتلك الفصول الروائية حتى صرتُ وحيدة من الصداقات إلا سارة وخالتي عواطف التي لم تكن ذات علاقة وطيدة بصديقات أمي في حياتها... مر يومي في المدرسة عادياً لا يخلو من قفشات ونكات بيني وبين سارة التي يبدو عليها التعب، وبرغم ذلك حاولت إخفاء ما تحس به فدغدغت يومنا ذكرى نور الدائم وحسين...

يوم الخميس نهاية الأسبوع نترقبه بقلوب وجلة، هذا اليوم سمح لي أبي بالمبيت في منزل خالتي عواطف، اتفقنا ليلة الأمس أنا وسارة أن نكمل يومنا في منزلها إلا أن التعب الذي لازمها بالأمس يبدو أكثر وضوحاً اليوم، أحسستُ بذلك عندما كنا في طريقنا إلى المنزل، حاولتُ أن أستبين قلقي بإجابة شافية لكنها أنكرت شكوكي وادعت أنها بخير، أصررتُ على موقفي لكن إنكارها قد حسر مدي وجزري، بيد أني لم أيأس من تلاوة أسئلتي المتواصلة، لكنها بعد أن طال منها الضجر غافلتني بحاجتها للراحة وطلبت أن نؤجل خطط مغامراتنا ليوم آخر، حاولتُ إثناءها عن رأيها ومرافقتها لكنها اعتذرت بشدة وتهربت من النقاش، تركتها تذهب وحيدة إلى منزلها والأسئلة تلتهم تفكيري عن سبب تعبها وتغيرها، تقلصت في رأسي أي فكرة حميدة حاولتُ أن أقنع بها خوفي وصرتُ أردد: «الله يستر عليكي يا أختي».

عدتُ إلى أبي في الخلوة لأكمل معه التحفيظ، عند المساء اصطحبني إلى منزل خالتي عواطف للمبيت معهم، كانت خالتي عواطف مستلقية على فراشها في الحوش، بعد أن سلمتُ عليها سألتها عن سارة أخبرتني أن سارة تعاني من آلام الطمث وترقد في غرفتها، طرقتُ على الباب بهدوء ردت سارة بصوت منهك ومنحتني إذن الدخول، اقتربتُ منها وهي ترقد ساكنة، جلستُ على طرف سريرها وأنا أضع كفي على جبهتها لأمسح حبيبات العرق المتصببة على جبينها، قلتُ لها في همس :

ـــ أغلي ليكِ حرجل بنفعك...

تحرك رأسها رافضة اقتراحي، أجلس في سريري أحاول أن أتبادل حديثاً معها لكن دموعها تهرول في شقاء، كررتُ سؤالي عن حاجتها لشيء ولم ترد، اكتفت سارة بالصمت... قضيتُ ليلتي حزينة ليتسلل إلى سمعي صوتاً كصوتِ نهيق حمارنا عابراً الفيافي، فأغفو في تعب وأحلم بأنني كنتُ أركض في حديقة غناء، أحدث الطيور وأقطف قطرات الندى من على بتلات الأزهار، فتبتسم أمي في أمل، وكان حمزة يحملني تارة ويمسك معصمي تارة أخرى نركض كيافعين، حمزة في عمر الشباب، تلوح لنا أمي من بعيد فيسرع حمزة محاولاً تلبية النداء أبحث عنه بين الأشجار الباذخة فيختفي وأعاود البحث كثيراً ولم يحالفني الحظ بلقائهم، أجلس منهكة الشوق لأسمع بكاء طفل تحت شجرة اللبخ، فجأة يتغير المكان، يتغير الزمان، من تلك الحديقة إلى الكمبو لأستمع إلى صرخات متتالية، فأهرول في رعب وأنفاس متقطعة وأجدها مسجاة على ورق كرتون ملفوفة بقماش أبيض، وأصحو مذعورة أصرخ وأتصبب شكوى...

تجلس بالقرب مني سارة وهي تقرأ المعوذتين، تسألني عما رأيته في الحلم، تحثني على الحديث مطمئنة فأنصاع لحنانها راغبة مرهقة وأحكيها بدموع جزلة وخوف تغلبت عليه، تستمع إلى صامتة تماماً تقلب روايتي في أحلامها ترفع صوت تفكيرها عند كل أنين مني وتكثر من تأملها، تلجمني دمعاتها الهاربات من صبرها، تعانقني ببكاء، يهدل القمري الساكن قرب غرفتها، أتلصص على حزنها الذي يزج بخوفي في سجن مؤبد، وينكسر مرق هاجس حلمي المتكرر لأرقب سارة في حاله حزن...

لا أدري ما الذي أصاب سارة ولم أعلم ما الذي ألجم خوفي أكثر ؛ أهو حزن سارة المفاجئ، أم بوحي بحلم ظل يراودني لثلاث أشهر متتالية، كانت ساعة من الحزن الغافل عن الكمبو، فمع صوت الحياة في صباح الجمعة كنتُ وسارة نطلق صوت جنازة تخرج إلى الكمبو ببكاء طفل مجهول النسب، تحدثت سارة عن الطفل الملفوف بالأبيض في حلمي، أكثرت من السؤال عنه وتغافلت عن أمي وحمزة، لم يكن حلمي يحمل تفصيلة أكثر مما سردت عليها، لكنها كررت محاولات السؤال لأكثر من تهجس، نحتت التفاصيل ورسمت لها سيناريو وأصبحت تقترح أسماءً للطفلة، ها هي تتحدث وتبتسم وتسرح في افتعال شوق لطفل، تهدهد الطفل بين يديها ترسمه على الحائط وتقف على طولها لتنصب نفسها في حالة حمل، واضعة كفة يدها اليمنى خلف ظهرها رافعة صدرها متعمدة إصدار انقاس متقطعة لتبدو امرأة تحمل طفلاً في شهرها التاسع...

خمسة أشهر وتفرقت بي السبل، صرتُ وحيدة إلا من نور الدائم الذي استحالت علي مقابلته خلسة بعد تدهور حالة سارة الصحية، أيام مرت وكثرت خلافاتي مع أبي، قل صمتي وعلا صوتي، زادت رغبتي في الهرب من الكمبو، وتوسلت شجرة اللبخ لطهارتي أن تظل قيد قدسيتها، لم أكن باذخة في الصبر نلت أول قبلة لي من نور الدائم نهاراً جهاراً في يوم دراسي، تعمدتُ التثاقل في احتواء حنيني لفعل إثم تبيحه مراهقتي، وراهنتُ بفعل معصية مشاغبة، فعلتُ كل ما أملاه علي ضمير الغائب، تزينتُ وتبجلتُ وتوددتُ لنور الدائم بكل ما أوتيتُ من غنج ودهاء، هيأتُ

مكاناً للاختباء بعد أن علقتُ خماري الأصفر ليقينا شر المتلصصين وفعلنا ما وددتُ، واقتصيتُ لحريتي المسلوبة، يومها زففتُ مغامرتي إلى سارة لأمنحها ابتسامة ونجحتُ في بغيتي، لكني لم أفلح في منحها وداعاً يليق بحبيبها حسين، فنتيجة قبول الجامعة مع إصرار عمه إلى السفر ليحجز له موقعاً في الداخلية، ولتكلمة إجراءات التسجيل لم يقيا حبهما من حرارة الهجر... أما أنا ونور الدائم فالحال بيننا هائج كعباب بحر ساكن في ليلة من ليالي صيف أيار، أنا ونور كما يحلو لي مخاطبته حين دلال نعلم أن حبنا ما هو إلا مغامرة تتكسر سيوفها عند أول معركة شرف ومواجهة، فنور يصغرني بثلاثة أعوام، يسكن في المدينة من أسرة ميسورة الحال، هو صديق لحسين، ولحميمية صداقتهما جعلا من يوم الجمعة مرتعاً لمغامراتهما الناشئة معي وسارة، فالحب الحقيقي كان بين سارة وحسين، وكنتُ ونور ملازمات تعبر رياح نشوة إلى حين تعقل ورشد، لذا لم نتعجل الفراق كما لم نبرر أسباب مللنا فافترقنا في صمت...

خمسة أشهر ولازال يزورني الحلم في كل ليلة بانتظام، خمسة أشهر وأنا منهكة أعاني من صباحات ممهورة لدموع وليال قاحلة باردة، فقد أقبل الشتاء ومنح قفارنا برداً قارساً.... خمسة أشهر وقد تغيرت ملامح سارة فقد اكتسبت وزناً وقلت حركتها، كبرت بطنها بعد أن أصيبت بالاستسقاء، لزمت المنزل ولزمتها خالتي عواطف حزناً، لم يصمت أحد عن السؤال عنها، كان حسين قد رحل إلى الخرطوم بعد أن ظهرت نتيجة قبوله بالجامعة، لم يكن يعلم عن حالتها شيئاً، ولم نملك وسيلة اتصال

لنخبره عما ألم بسارة محبوبته...

خمسة أشهر وقد بلغني الحزن كالنبأ العقيم، صار يقيم معي، يفتتح جراحاً، يرمي جنود صبري كل ليلة فأقع مغشية علي بالسقم، نحلتُ وأصابني السهر بتميمة دائمة، ومع كل ما أعانيه لم ينقطع مد حلمي المكرر ليوم واحد، فقدتُ صديقتي سارة النشطة، تحسستُ علاقتنا السابقة وأنا أبكي هرماً، لم يكن ما بيننا عويل أو صراخ، فلحظات معانقتنا تجلس موفورة بالغبطة، كلمات سارة صارت مرعبة فقد ملأتني بالوصايا على خالتي عواطف، توقفت عن الابتسام وشحبت أهدابها، هرمت أجفانها وانتفخت بطنها، تورمت أطرافها وقلّ أكلها، قررت خالتي عواطف السفر إلى المدينة لإجراء عملية الاستسقاء بعد عرضها على الطبيب المختص بالمخيم العلاجي السنوي الذي تقيمه جمعية تطوعية في مشفى المدينة بواسطة دكتور عثمان الذي يعمل بمشفى المدينة...

ولكن... ذاك الحلم ظل يعاودني، كنتُ أركض في حديقة غناء، أحدث الطيور وأقطف قطرات الندى من على بتلات الأزهار، فتبتسم أمي في أمل، وكان حمزة يحملني تارة ويمسك معصمي تارة أخرى نركض كيافعين، حمزة في عمر الشباب، تلوح لنا أمي من بعيد فيسرع حمزة محاولاً تلبية النداء، أبحث عنه بين الأشجار الباذخة فيختفي، وأعاود البحث كثيراً ولم يحالفني الحظ بلقائهم، أجلس منهكة الشوق لأسمع بكاء طفل تحت شجرة اللبخ، فجأة يتغير المكان، يتغير الزمان، من تلك الحديقة إلى الكمبو لأستمع إلى صرخات متتالية فأهرول في رعب وأنفاس متقطعة

وأجدها مسجاة على ورق كرتون، ملفوفة بقماش أبيض، وأصحو على صوت نشيج متقطع، أهرب بفكري إلى سارة مهمومة، ويعود من جديد صوت النشيج وأهمله في لا مبالاة.

يزداد صوت النشيج وضوحاً ثم لا يلبث أن يتحول لبكاء طفل مختنق، أمعن الصمت لأتأكد، وينقطع مد الصوت فأعود لفراشي مبتسمة وأردد: لعل أحلامي قد أنهكت بصيرتي فصرتُ لا أميز بين الواقع والخيال، ثم لا يلبث أن يرعشني الصوت مرة أخرى ويزداد قرباً، يتبعه نباح جيمي كلب حاجة نفيسة وصياح ديكها، ثم تسكن الغنيمات عن ثغائها ليصرخ حاج مكي بعلو خوفه:

ـــ دا شنو يا ناس؟!

وعلى صوت حاج مكي يصحو الكمبو لنقف على باب منزلنا لنراها طفلة مسجاة على ورق كرتون ملفوفة بقماش أبيض...

الفصل الثـانـي :

رسالة إلى سارة :

المرض ابتلاء وصبر، نكفر به عن هفواتنا...
سنكون كما نود...

سلام

بكل ما أوتيتُ من فرح أُخفي دمعتي...

لـ«**درويش**».

الثلاثاء من شتاء ديسمبر 1990

صديقتي سارة... أفتقدكِ كثيراً!

أتسمحين لي يا سارة أن أودعكِ برسالة؟ مؤكد أنكِ لن تسمحي، فما زلتِ تتنفسين تحت قبركِ سعيدة، أعلم ذلك !

ما زلتُ أبحث عن كينونة وُئِدَت في مهد صبحها، تلك الطفلة الشتوية، أنهكها البرد وكسر ظهرها وهي في مقتبل أنفاسها... لم أكن أبحث عن موتي بين أحضان عثمان، ولم تكن أمي تسمح لي بممارسة فعل طاعة لنزوة أمومة تتلصص على شرف أبوين، لم يكن ليدعني حمزة ألتقي به وأنا أحمل ندوب خوف من نهيق حمار...

لقد زارني شيخ أحمد تمساح في الحلم مرة أخرى وترك لي وصيةً، كعادتي فهمتُ الدرس متأخرةً... قال لي وهو يقف في منتصف قفر الكمبو في ليلة الواحد والعشرين من رجب، بجلابيته الخضراء وعصاه التي تحمل رأس التمساح، بصوته المدجج قوة ورصانة: «أقبلي يا حياة، أقبلي يا حياة، لا تخافي»! ثم مد إلي كلتا يديه فتفجرت بينهما رياح دفعتني إليه مرعوبة، وقفتُ أمامه حائرة خائفة أرتجف، ناولني خاتمه الفضي بياقوتته الحمراء مبتسماً وهو يقول: «حياة.. وستكونين حياة لما بعد حياة»! ظللتُ أراقب تفاصيله في عجز ثم لا يلبث أن ينكمش طفلاً ليحمل حجراً يلتقطه من

بين أسفل قدمية ليقول: «السر في الحجر»! لأصحو من نومي على صوت ديك حاجة نفيسة...

– سارة.. أحسني راحلة عما قريب، فلم يعد هناك من وقت للشكوى... يجدكِ بحياة هانئة...

ديسمبر نهاية كل شيء وبداية أشياء أخرى، انتهى العام وسكنتُ ألازم سارة في مرضها، كل شيء في الكمبو هادئ لا يُنذر بمغامرة جديدة عدا ذاك الشغف الخفي الذي يتطفل على وحشتنا من حين لآخر، رُبما لولا حادثة صباح السبت لما تمكنتُ من الالتقاء بدكتور عثمان بعيداً عن شهود العيان المتطفلين، كان صباحاً غريباً تزامنت فيه الأحداث مع مواعيد إجراء العملية الجراحية لسارة، وعلى الرغم من الكوابيس المتلاحقة التي زارتني عقب ذلك اليوم إلا أن صورة الطفلة المسجاة كانت طبقاً لحلمي الذي ظل يراودني ردحاً من الزمن، حاولتُ كثيراً إيجاد خيط يربط بين كفتي حلمي وواقعي وما شهِدته من تفاصيل نزيف الفاجعة في الكمبو، أذكر جيداً بعد صراخ حاج مكي لم يخل منزلنا من دابة تستفسر بصوتها، ولم تدع لنا حالات الدهشة سبيلاً للتبرير، فالجميع قد أصابه الوجوم... الجميع يسمع... الجميع يصرخ... والجميع يضرب أخماسه في أسداس الكمبو، وتفرعت أصابع الاتهام الصامتة إلى كل إناث الحي، لم تسلم بكر أو ثيب أو امرأة في عصمة زوجها من بصمة اتهام حاج مكي وحاجة نفيسة، هما من يبرهنان، يبرران، يسوقان التفاصيل، يحكي حاج مكي ويزعم بطولات زائفة شاهدها، تؤازره حاجة نفيسة هي الأخرى وتسرد

تفاصيل حكايا من وحي خيالها... ولم يسأله أحد.

لم يستطع كائن أن يعترف أو ينكر صلته بالطفلة، وحسبما تعترف قوانين الكمبو في القضايا الشائكة فقد دُوِنت القضية ضد مجهول، وماتت في مهد الاستقصاء عن حقيقتها، فلم ولن تصل إلى خارج حدود قفار الكمبو، فليس للشرطة باب تطرقه، وليس لها شهود تستمع اليهم أو متهمون تحقق معهم... الجميع في غمرة انفعالهم وسؤالهم عن فاعل الجريمة قد نسوا مصير روح تقاتل من أجل أن تجد حياة، الكل غفل عنها، هرجوا ومرجوا وناحوا ثم غادروا وتركوها مسجاة تتنفس لهاث كلب حاجة نفيسة فهو الكائن الوحيد من بين الحاضرين الذي حاول أن يستفهم عنها، ولجيمي مرافقة أخرى قطة حاجة نفيسة...

ظللتُ مُتسمرة أنظر إلى فراغ القفار، أروي ظمأ حلمي بواقعي حاولتُ أن أستعير دفئاً، إحساسا منمقاً بالأمان، لكن دفوعات الصمت كانت أكثر هزالاً مما ظننت، كنتُ خائفة مشتتة أرتجف سعادة لتحقيق حلمي، وأرتعش رعباً لذلك، أحاسيس كثيرة وتفاصيل مرددة ظلت تلاحقني، هي دقائق حبيسة في جوفي ابتعلتُ فيها صبراً معلباً وقضمتُ بها مائدة رحمة، كان صوتي قد غار في بئر سحيقة، وكانت أطرافي تبحث عن جلد يقيها برودة الشتاء.

لم أستيقظ من حزني إلا على نباح جيمي الباكي متبوعاً بصياح ديك حاجة نفيسة مهموماً بمواء قطتها... جميعهم شمروا عن سواعدهم، أعلنوا رحمتهم لحياة، كلهم صرخوا في آن واحد اجتمعت الشياطين

والملائكة لرحمة إنسانية وغفلت الأنس عن ذلك، الله ربنا رب السماوات العلى يبث رحمته للطفلة فيلبي نداء المواساة دواب الأرض، لا أدري أكان ذاك حلمًا آخر من أحلامي الغريبة... أم أنه واقع من كرامات الكمبو؟ أشهد أني قد لمحتُ غُنيهات حاجة نفيسة وحمارنا تهرول إلى مكان مرقد الحياة، وسمعنا خوار ثور من بعيد وقمرية تردد: «وحدوا ربكم... اذكروا ربكم»، فالدواب منحتنا حياة ما بعد الحياة، أيقظتنا من غفوتنا، علمتنا أن الحياة تستحق أن تُمنح... حتى الرياح طافت بصمتنا، تحدثت، ترافعت ودافعت عن حياة محكوم عليها بالعار، لم تترك لنا مراوغة، زمجرت بكل ما منحها الله من قوة، فصعقنا واجمين... الجميع صار في كسر من الزمن يبحث عن تلك الحياة المسجاة ببصره شاخصاً، ولم يجرؤ أحد على فض بكريتها.

لا أدري كيف أتتني القوة لأهد الحاجز الذي هزم الجميع وأحملها بين قلبي وحزني، عانقتها فصمت الوجود إلا من أنفاس وجلة متسائلة تفقدتها بدموعي وقبلتها بحناني، فتأوهتُ سعادة مع هبوب رياح الشتاء معلنة عن بداية حياةٍ جديدة... كان أول من قطع منصة الدهشة والصمت حاج مكي حين قال: «سنعهد بها إلى حاجة نفيسة إن كانت لا تزال حية»... قلت له في حزن هامسة: «هي حياة» وصار اسمها حياة...

مر أسبوع... وحياة بجمالها في عهدة حاجة نفيسة تسامرنا بصوتها الرشيق في ليالي الكمبو الهادئة، شغلت جميع الكمبو بها ثم صمت الكل عن حكايتها بحكم العادة، نشأت بيننا علاقة حب وعناق فصارت

كأخت لي، فرحت بها حاجة نفيسة وتسامرت معها مُنى في البدء فباتت بينهما صلات ابتسام ولغة صمت، لزم جيمي منزله يسعى لتوطيد علاقة ناشئة بينه وبين حياة، حياة كانت روح خير سكنت الكمبو، ففي أسبوعها الأول عم الهدوء والسكينة ليالي الكمبو المقفرة، المنازل سكنتها روح مناجاة صامتة، لا أدري أكانت تلك مصادفة أم أن دقة ملاحظة حاجة نفيسة عن صمت نهيق حمارنا حينما يقوده عم محمد ليوزع به سُقيا الماء إلى الحي أمام منزلها، ادرار غُنيماتها للمزيد من اللبن والتزام ديكها بالصياح فقط في أوقات الصلاة عوضاً عن صياحه في كل الأوقات وأشياء كثيرة ومثيرة، غير أن ما حدث لي هو الشيء الوحيد المحسوس في قرارة نفسي، فقد توقفت الأحلام تماماً ولم تعد أمي تزورني ولا حمزة يسامرني، لا أخفي نفسي سراً اشتقتُ إليهم كثيراً على الرغم من الراحة التي تسربت إلى منامي وصحوي بدون كوابيس تلاحق واقعي، وأظنني قد انشغلتُ بكل خوفي مع سارة صديقتي الحبيبة وعثمان طبيبها...

يطل مشفي المدينة على ساحة واسعة، تصطف السيارات في الفناء الأمامي منها، تتوسطها صالة مستديرة بسقف تتدلى منه مروحيات ذات رقاب طويلة، الجدران ذات لون أبيض، تتوزع بها مصابيح دائرية متفرقة بأحجام مختلفة، محاطة بغرف كثيرة بنصف دائرة لاستقبال المرضى تبدو كغرف الفحص، أول غرفة تستقبلك كُتب عليها الاستقبال، تدخل عبرها وأنت في كامل أهبتك وخوفك، فرائحة الديتول والمرض تصافح طمأنينتك لتجد نفسك تراقب ملائكة رحمة يغيبون بين زحام المرضى

والسائلين، تساءلتُ كثيراً : أهو مشفى أم متجر؟ فقد لاحظتُ بعض الباعة المتجولين يطوفون بين جلوس الانتظار يعرضون بضاعتهم، وهناك أيضا مشهد لامرأة ستينية تحمل أقمشة ملونة تعرضها أمام بعض النسوة، من تبينت ملامحه أخيراً هو دكتور عثمان من بين جميع الوجوه الغريبة التي مازحت تساؤلاتي عن غرفة سارة، لمحني دكتور عثمان من مسافة بعيدة تقدم مني بخطوات واثقة، هو ذاته لم تغيره السنون، ظل وسيماً يحتفظ للحياء بتميمة، له ابتسامة رقيقة بعينين واسعتين جاحظتين يتوسطهما أنف أفطس، مد شوقه ليصافحني فحجب عني أشعة شمس تتلصص خجلاً بطول قامته، ابتسمتُ خجلة وصافحته حذرة، كان يتحدث بسرعة وكنتُ أحفظ كلماته بتؤدة قال لي:

ـــ مرحباً بك يا حياة في المشفى، أعتقد أنها المرة الأولى التي تزورين فيها القطينة...

وأومأتُ بالنفي، ابتسم في خشوع ثم قال :

ـــ هي إذن المرة الثانية...؟ وأومات نفياً، فابتسم في شك :

ـــ مؤكد أنها المرة الثالثة...؟ وأومأتُ في ذعر، فضحك حتى بانت غمازته... قال من بين غنة :

ـــ أدرك جيداً كم بالضبط عدد المرات التي زرتِ فيها المدينة، اثنتان وعشرون مرة واليوم هي الثالثة والعشرون!

ثم تنفس طويلاً وقال:

ـــ أول مرة كانت عندما وقعتِ من على بوكس عمكِ عبدالله في عيد

الأضحى، كنتِ تبلغين من الطيش ثلاثة عشر عاماً، كنتُ يومها طبيباً تم تعيينه حديثاً في المشفى أعمل بوحدة الطوارئ، كنتِ مصابة في رجلك اليسرى بجرح طفيف...

ثم طاف ببصره على وجنتي ولزم ببصره ندبة على شق وجنتي اليمنى واضعاً أصبعه موقع جرح وأردف:

ـــ كان هذا الجرح في زيارتك للمدينة في المرة السابعة...

ذهلتُ، صعقتُ، ارتجفتُ، غبتُ عن واقعي وعدتُ بذاكرتي قديماً جداً، ولم تسعفي تلك الذاكرة الهرمة عن استرداد وقت يسير كنتُ فيه بصحبة مغامرة في المدينة إلا وكانت سارة بصحبتي، لا أدري ما سر هذا الطبيب فقد حجب سارة عن تلك التفاصيل الكبيرة مع أننا كنا معاً، حتى إنني أكاد لا أذكر حادثا واحدا مما ذكره، نظرتُ إليه بعيون فطنة ثم قلتُ في ثقة:

ـــ لا بد أنك قد خلطت بيني وشخص آخر...

توقف للحظات وهو يتفحص سريرتي كأنما يعرّيني من هواجسي، وبعد صمت تململتُ منه قال :

ـــ حسناً يبدو ذلك...

ابتعد عني وهو يهز كتفيه، وأنا أرقب خطواته البطيئة، لمحتُ خالتي عواطف تحدثه وهو يشير عليها بمكاني، أقبلت نحوي حزينة متماسكة، عانقتها في هم وواستني في قوة، قالت :

ـــ جيتي مع منو يا حياة؟

ـــ مع عم عبدالله بالبوكس... سارة كيف يا خالتي؟
ـــ في الغرفة 23

ابتعدتُ في عجلة لألحق بركب شوقي لرؤية سارة... ممددة سارة على ألمها تتنفس بمشقة، الغرفة هي عنبر طويل به مجموعة من الغرف تفصل بينها ستائر من المشمع الملون معلقة على حاملات حديدية، المساحة المخصصة لسارة بها سرير واحد ومنضدة حديدية وُضِعت عليها حافظة ماء وفناجين شاي تسكن بإهمال، علبة حلوى تستقبل بها سارة الزوار، حاولت أن تمدها لي فسارعتُ في عناق رفيقتي بنهم، توقفنا لسنين عدداً لنبرئ جرح شوقنا لخلوة، تمرغنا في ذاكرة أكفنا ومارسنا طقس البكاء بإخلاص، لأول مرة منذ أن نطقنا بأولى كلماتنا نفترق عن رؤية بعضنا لأسبوع، لا أدري كيف مرّ علينا ذلك الوقت ونحن نحمل جنين حلم، ابتسمنا رقصنا عدنا للكمبو يوم الجمعة خائفتين من رقيب التقينا بنور وحسين، تحسسنا مراهقتنا وتعقلنا بنزوات غرائزنا.

كان هناك الكثير من الأحداث المتلاحقة التي لم تشهدها سارة وتقف على صمتي لأسردها، وقصصتُ عليها كل ما حدث بتفاصيله السقيمة، مرّ علينا الكثير من الوقت حتى حل المساء ولم ندر إلا بعد أن نبهتنا خالتي عواطف إلى ذلك... سارة تبدو قد تعافت لكن شيئا ما أحسسته يقف بينها ومصارحتي، سألتها كثيراً عن حالها فردت أنها بأحسن حال ولا تشكو من عطب، غير أن خوفي قد لمح بقعة دم على صدرها، صرختُ خائفة طلباً في عون إلا أن سارة أوقفتني وقالت إنها بقايا دم من العملية،

ولم أصدق ذلك، تفحصتُ جسد سارة إنشاً إنشاً، كان انتفاخ بطنها قد اختفى وكذلك التورم في رجليها، ولم يعد هناك أثر للظواهر التي كانت تعاني منها سارة في السابق، بيد أني مازلتُ أتوجس نذير شؤم...

ودعتُ سارة غير مطمئنة، عدتُ إلى الكمبو أكثر هماً بصحبة دكتور عثمان وخالتي نجاة جارتنا، كان الطريق إلى الكمبو متعرجاً، طاف بهواجسي فرسم خطوط كنتور متشابهة، فالعمران بين المدينة والكمبو يختلف كثيراً، فمظاهر الحداثة تبدو جلية على المدينة؛ أعمدة الكهرباء على طول الطريق الرئيسي المسفلت، المساحات المُشجرة والسوق العامرة بروادها، المنازل ذات الأسطح العالية وحركة السيارات الدؤوبة المتعرجة في طرقات المدينة الداخلية غير المعبدة...

بعد نحو نصف ساعة من الزمن وجلوسنا في عربة دكتور عثمان الصغيرة لاح لنا الكمبو بظلامه الوخيم، كان هادئاً إلا من رياح الشتاء القارسة، استقبلنا جيمي بنباحه من على مسافة ليست بالقريبة، ظللتُ طول الطريق أرقب البيوت المتفرقة ببنائها المختلف المساحات الواسعة الشاسعة الخالية من موطئ منزل... الإنارة المتفرقة من بعيد لدورات المياه، لفحتني موجة برد عاتية فارتجفتُ رغماً عن شرودي، لاحظتُ أن دكتور عثمان يتابعني مستفسراً، فأجبته مهدلة جفنيّ، ابتسم بشغف كأنما منحته قبلة، وأغمض عينيه على ما تبقى له من نعاس وتثاب ملء رغبته في الراحة... كنا قد وصلنا إلى منزلي، وكان أبي يقف أمام منزلنا متوكئاً على قلقه منتظراً، تقدمني دكتور عثمان إلى أبي وهو يقول :

ـــ عم إمام... سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، اعذرنا للتأخير... فالخطأ خطئي...

ثم من بين ظلال رموشه الطويلة رمقني آمراً بالصمت وأردف قائلاً :

ـــ غداً سأمر على حياة في الصباح عند الساعة الثامنة لأصحبها إلى سارة، حتى تعود الخالة عواطف...

وابتسم في انتصار، فتحتُ فم اعتراضي مترددة فرفع يده ملوحاً لي بالوداع... ولم أملك حجة لأبرر أو أكذب، ولم يعترض أبي فقد بات مهموماً لأكثر من وجع، تفرستُ ملامح أبي وجدته ضائعاً، تقدمني ببطء وهو يستدل على الطريق إلى مكان سريره في الحوش بعصاه الحديدية فتعثر عند أول عتبة من الخوف، هرولتُ إليه مرتجفة... تمعن خوفي بابتسامة ثم توكأ عليّ، جلستُ على حافة سريره أتبادل أطراف شوق ونجوى، ساعدته ليرقد مسنداً رأسه على ذراعة اليمنى وهو يقول :

ـــ سارة... كيف بقت؟

ـــ الحمد لله كويسة

ثم يتأوه دمعاً وهو يقول :

ـــ أنا أعلم مقدار ما تمرين به من ألم ومشقة ووحدة، لكني أدرك أكثر أنكِ مؤمنة بقضاء الله وقدره وستصبرين...

قاطعته بصوت حاد وأنا أصرخ :

ـــ ماذا هناك يا أبي؟ سارة بصحة جيدة وستتعافى إن شاء الله؟ علام الصبر وفيم الصبر؟

تردد أبي كثيراً وهو يشهق بكاء ثم قال :

ـــ ألم يخبروكِ بعد يا حياة بعلة سارة الحقيقية؟

انتفضتُ من جانبه مذعورة، وقفتُ في منتصف الحوش أصرخ وأبكي، زفرتُ عن كل غضب السنين المحبوسة داخلي، نعتّ أبي بأبشع الصفات ولم يرد، ظل صامتاً يجلس على سريره مهموماً، استفزني صمته، دنوتُ منه صرخت في وجهه، هاجمتُ صدره كطفلة ثائرة، أفرغتُ كل ما في جعبتي من خوف وجهل وحزن، ثم عانقته خائرة الشجاعة، فوهبني حضنه إلى حين نوم وحلم... وحلمتُ بزيارة شيخ أحمد تمساح إلى الكمبو في رجب، كان يقول لي وهو يقف في منتصف قفر الكمبو، في ليلة الواحد والعشرين من رجب بجلابيته الخضراء وعصاه التي تحمل رأس التمساح، بصوته المدجج قوة ورصانة : «أقبلي يا حياة، أقبلي يا حياة، لا تخافي»! ثم مدّ إليّ كلتا يديه فتفجرت بينهما رياح دفعتني إليه مرعوبة، وقفتُ أمامه حائرة خائفة أرتجف، ناولني خاتمه الفضي بياقوتته الحمراء مبتسماً وهو يقول: «حياة وستكونين حياة لما بعد حياة»، ظللتُ أراقب تفاصيله في عجز ثم لا يلبث أن ينكمش طفلاً، ثم يحمل حجراً يلتقطه من بين أسفل قدمية ليقول: «السر في الحجر»، لأصحو من نومي على صوت ديك حاجة نفيسة...

كانت الليلة السابقة مُنهِكة فما زلتُ أحاول حل ألغاز أحاديث أبي، وزيارة شيخ تمساح لي، ولغز الحجر وحياة الصغيرة ودكتور عثمان وسارة الممددة على وهن، كل تلك التساؤلات قد أعطبت تفكيري وأرهقت

ما تبقى لي من صبر... صرتُ خائفة مهمومة أرتجف وأنا في طريقي إلى المشفى في المدينة بصحبة دكتور عثمان الذي حضر مبكراً عن موعده، تناول معنا وحاج مكي شاي اللبن، تغازل مع خطواتي بشغف، تبعني في كل تفاصيلي قاطعاً الطريق أمام أي عبوس مني، مازحني صامتاً وأنبني ضاحكاً، صافحني معانقاً فتلصصتُ عليه خجلة...

كان الطريق إلى المدينة هذا الصباح أكثر تعرجاً وأطول مسافة فما بين صمتنا وشغف دكتور عثمان دارت الكثير من الحوارات الصامتة، تمت مرافعات ورُفِعت التماسات، لم أنبس ببنت معجزة، ولم يشفِ دكتور عثمان علة خوفي ببنت كلمة، حتى تحيته كانت بإيماءة هامسة، وصلنا إلى المشفى والبرودة قد عمت جميع أطرافي، أصبحتُ مشلولةً أجلس بجانبه أقاوم رغبة مُلِحة في الحديث معه؛ سؤاله عن حقيقة مرض سارة، لكن شيئا ما يقف بيننا، حيائي يرسل بسبابة وعيده فأصمتُ طائعة...

فُتِحت أبواب المشفى لاستقبال عربة دكتور عثمان، دار بالعربة نصف دائرة ليجد له مكاناً مناسباً ليركن به العربة، تلك الدائرة المتعجلة قد أدت لارتطام وجهي بزجاج النافذة الأمامي فصدرت مني أنّةٌ خائنة كممثل ثانوي يزاحم على دور البطولة، ابتسم دكتور عثمان ودار ببصره بحثاً عن موقع الإصابة، وبلا تردد تحسس بيده على رأسي في بطء، ثم سكنت أنامله على خدي متقدمة بوهن على حاجبي الأيمن، وبسبابته ضغط مطولاً على أنفي حتى استفقتُ من خجلي مختنقة غاضبة، ثم بدأ يقول مبتسماً:

ــ لقد وصلنا سالمين إلى المشفى، ولم تصابي بشيء غير لمسة من أنامل

طبيب أثارته وجنتا بنت ريف لم تبلغ سن الرشد بعد...

وخرج من العربة مسرعاً... ترددتُ كثيراً وأنا أقف في تلك الثانية من النجوى لاسترد رباطة شجاعتي من جديد، فما زال عليّ خوض معركة أخرى من أجل سارة..

الغرفة (23) تسكن هادئة، تلمستُ طريقي بين فواصل الغرف لأصل إلى سارة، رائحة المحاليل الوريدية تعبق الغرفة، الممرضات يتفقدن المرضى ويقرأن في فايلات معلقة على مشاجب في حواف الأسرة، لم تكن هناك رائحة حياة غير أصوات سعال تتسلل إلى أنفي من حين إلى آخر وأنا أبحث عن سارة، سمعتُ صوت خالتي عواطف تتحدث مع مجموعة من الأطباء من بينهم دكتور عثمان، صوتها يتهدج دمعاً، وقفتُ أبتلع خوفي وأنا ارقب دكتور عثمان وهو يربت على كتفها، رأيتها تضع كفتيها على جانبي وجهها ثم ترفعهما إلى السماء لتنشد دعاء يمزق صبري: «رحمتك يا رب»! فتبدو هزيلة جداً.

توقفتُ كثيراً أحاور صمتي وأسترق السمع إليهم من بصيص رهبة، لمحني دكتور عثمان فابتسم محيياً، خرجتُ إلى بهو المشفى أتمسك بآخر حبل صبر تبقى لي، درتُ في حلقات مفرغة بائسة باكية، عدتُ بذاكرتي إلى الكمبو وأولى بوادر مرض سارة حينما كانت تشكو من ألم متواصل في بطنها، ظننا أنها تسرف في أكل الشطة فبدا لنا ذلك سبباً منطقياً، لكنها كلما كبرت في العمر زادت شحوباً، تم تشخيص حالتها وهي في الثانية عشرة من عمرها بالاستسقاء، قال الطبيب عندما تبلغ السن المناسب

سنجري لها العملية، كان ما يبين علتها انتفاخ بطنها الموسمي وتعودنا على مظهرها وتعايشت هي مع دائها، مرت بنا الكثير من الأوقات ونحن نبني لنا صرحاً من الصبر، تناسينا وجعنا وشيدنا لنا سعادة من صبر، وقفتُ أهتف بدعائي وأبتهل لرب العزة بشفاء سارة...

مرت الكثير من الذكريات من أمام شجني وبؤسي، لملمتُ ما تبقى لي من عزيمة وعدتُ إلى حيث ترقد سارة، كان المكان قد فرغ من اكتظاظ الأطباء، وسارة تجلس معلقة بصرها على سقف الغرفة، قطعتُ المسافة مسرعة وعانقتها وجلة مهمومة، استلقت مدة طويلة على صدري تبكي ألما، قالت من بين دموعها :

ـــ أنا مريضة جداً يا حياة، لا أمل لي في الحياة.

عانقتها بقوة، اختنقت مهتاجة فأرخيتُ من خوفي وتمعنتُ وجهها مليًّا، عانقتني مجددًا وهي تقول :

ـــ أنا مصابة بتليف في الكبد.

ثم أردفت تقول بارتجاف:

ـــ لقد تقرر سفري إلى الخرطوم ليس لي علاج في هذا المشفى، أظنه الوداع يا حياة!

وضعتُ كفي على فمها وأنا أقول :

ـــ ستتحسنين يا سارة، وستعودين صحيحة معافاة، وسنحقق جميع أحلامنا، لن يغيبك داء أو خوف عن حياة، لطالما حلمنا معاً وسنحقق ما أردنا سوياً... أنتِ قوية ولن تستسلمي...

وبكت كثيرا، وصمتت أكثر، قلت لها :

ـــ ستسافرين وستتحسنين وستتلقين علاجكِ وستعودين لنحقق أحلامنا، كل شيء نسجناه سوياً سنعاود رتقه معاً، حلمنا ينتظركِ، لن أحقق أي شيء بدونكِ...

صرخت في وجهي وأبعدتني عنها قائلة:

ـــ لن تربطي حياتكِ بأحلام معاقة في الكمبو، مكانكِ ليس هنا، يجب أن تخرجي للحياة، أن تتنفسي سكينة... حياة يكفيك حزناً على ذنوب ظلت تؤرق منامكِ، الحياة ماضية يا عزيزتي، الموت والحياة هما دفتا وجودنا، سنغادر شئنا أم أبينا، سنودع برغبتنا ومن دون إرادتنا، سننجب أو لا ننجب، سنكمل ما حلمنا به في حياة أخرى... حياة ما بعد الموت هي رحلتنا الثانية يا حبيبتي...

«حياة... سنلتقي في حياة أخرى بعد الموت».

الأسبوع الأول من مارس سافرت سارة إلى الخرطوم بصحبة خالتي عواطف، وما زالت كلماتها تتردد على فزعي، بتُّ أكثر وحدة، أحاول التجلد في ليل صريم الكمبو، لم يسامر شكوتي غير صوت حياة الباكي ونباح جيمي قلقاً، الطبيعة الشتوية القارسة أكثر سخاءً من سكان الكمبو الصامتين على همومهم، الشتاء يمتد أكثر هذا العام والأيام تمر متسارعة والأحلام تطاردني أكثر...

سافرت سارة وتركت وراءها فراغاً يؤرق وجلي، توطدت فيه علاقتي بوحدتي أعمق، وزاد همّ أبي أكثر، عاداتنا القديمة فقدناها، لم يعد يوم

الجمعة متكأ لنا من تعب أيام الأسبوع، صار أبي يقضي جُل وقته في خلوته وبين أطفال خلوة المسجد، يتناول طعامه مع حاج مكي أحياناً، وأتناول حزني بصحبة جدران غرفتي والمشكاة المعلقة على طرف سريري، أقرأ بها ما تيسر لي من قرآن، أتحصن بالدعاء وأخلد إلى نومي خائرة الشجاعة...

صباح الثلاثاء وبعد مرور أكثر من شهر على سفر سارة وانقطاع أخبارها كنتُ قد استسلمتُ لتشاؤمي، ذاك الصباح أفقتُ من نومي مذعورة فقد زارني شيخ تمساح في الحلم بعد غياب، كان يقول لي وهو يقف في منتصف قفر الكمبو في ليلة الواحد والعشرين من رجب بجلابيته الخضراء وعصاه التي تحمل رأس التمساح بصوته المدجج قوة ورصانة: «أقبلي يا حياة، أقبلي يا حياة، لا تخافي»! ثم مدّ إليّ كلتا يديه فتفجرت بينهما رياحٌ دفعتني إليه مرعوبة، وقفتُ أمامه حائرة خائفة أرتجف، ناولني خاتمه الفضي بياقوتته الحمراء مبتسماً، وهو يقول: «حياة... وستكونين حياة لما بعد حياة»، ظللتُ أراقب تفاصيله في عجز ثم لا يلبث أن ينكمش طفلاً ثم يحمل حجراً يلتقطه من بين أسفل قدمية ليقول: «السر في الحجر»، هذه الرؤيا قد زادتني همًّا...

أكلمتُ أداء واجباتي في المنزل كعادتي ثم ذهبتُ إلى زيارة حياة علني أخفف من همي، كانت الشمس قد بدأت تُشرق يصاحبها غمام يرسم أشكالاً متفرقة على جدران المنازل مع نسمات باردة تدغدغ حواف ثوبي، تعجلتُ في خطواتي لأتجنب نزلة برد فأنا أعاني من داء الجيوب الأنفية، استقبلني جيمي من على مسافة ليست بالقريبة، لهث بمرح وهز ذيله محياً

بسعادة وهو يجوب الطريق من أمامي وخلفي، تعثرتُ فجأة حتى كدتُ أن أهوي بيد أن أيادي قوية أعادت توازني، ظللتُ حبيسة خوف وضياع مغمضة تساؤلاتي عما منع وقوعي، لم أستطع فتح عينيّ فقد سبقتني رائحة دكتور عثمان متسللة إلى أنفي مصافحة، صافحتني برقة غمرتني بشوقها فجدتُ عليها بوحدتي، بحتُ لها بألمي، سامرتها، تحسستُ طريقاً تنيره إشارات القدوم، وقفتُ مدةً من النصر أسرف بها على حياة بحياة جديدة... ولم تطاوعني أطرافي في الابتعاد عنه، لزمتُ موقعي شغوفة مترددة، تأوهتُ وانقبض صدري، خنقتني عبرة مُلِحة فبكيتُ بكل ما أوتيت من شهور حزن وفقد وصمت، عانقته بكل همومي وحطمتُ ما بيني وخوفي من تميمة صمت... وصار لي رجلاً بإرادتي المترددة الشاكية، طفلة أبكي ورجل يربت على توتري، رجل وهبني أماناً واحتمل جنوني...

لا أدري كم من الدموع ذرفنا، وكم من الحنين عاشرناّ لا أعلم ما حدث لجيمي أو زيارتي المزعومة لحياة، لقد نسيتُ الكمبو وسارة وكل شيء وأصبحتُ أنثى بين ذراعي رجل يُجِيد تقبيل نحرها ليتفجر منها ألف شلال من الشوق، رجل يعلم مواطن حسنها فيداعب فراشة وجنتها لتطوف بياسمين حياة، رجل يسرح في ملكوت عينيها لتلمع شهبٌ وتسقط مجرات جديدة، رجل به أصبحتُ أنثى...

ـــــ اشتقتك!

ـــــ وأنا أكثر.

جاوبتُ آلياً ولم أفكر، فقد خدعتني أشواقي، وحررت اعترافاً صريحاً لرجل :

ـــ أريدك.

ـــ و....

وصمتُّ عن مكتوب الاعترافات، ابتعدتُ في فزع، كان جيمي يقف بيننا مراقباً، ظلت نظراتي معلقة أسفل قدمي، وشاهدتُ ظلال أقدام دكتور عثمان تتحرك مبتعدة، تنفستُ صعداء خوف، قلبتُ بصري على زوايا الطريق فلم أجد أثراً لأحد، تقدمتُ متعجلة إلى منزل حياة فتعثرتُ مرة أخرى، أغمضتُ عينيّ وأعددتُ العدة لرد لائق على دكتور عثمان وأنتظرتُ طويلاً حتى أصابني اليأس ففتحتُ عينيّ لأجد جيمي يعض طرف ثوبي ويحفر أرضاً، اقتربتُ منه مراقبة، ظل يحفر ويحفر إلى أن توقف عندما لاح شيء يلمع تنعكس عليه أشعة الشمس، مددتُ يدي تلقائياً فلمستُ شيئاً مستديراً ذا ملمس زجاجي، كان حجراً من الياقوت الأحمر تماماً مثلما شاهدتُ في الحلم عندما زارني شيخ تمساح، حينها لم أدرك جسدي وهو يقود مخاوفي مهرولاً إلى خلوة أبي:

ـــ يا أبوي... أبووووي !

أبي يجلس على سجادة الصلاة يقرأ أوراده اليومية، وقفتُ أمامه بقصر قامتي أرتجف، أشار بكفه على موضع بقربة لأجلس عليه فجلستُ مترددة، ظل يردد أوراده في خشوع وثبات مدة من الزمن حتى صمتُّ عن خوفي وصرتُ أكثر تماسكاً، وبعد أن فرغ من أذكاره قال في همس:

ـــ خير يا حياة؟ الحاصل شنو؟

كنتُ في أول الأمر مترددة، فقد خارت شجاعتي أمام جلَد والدي، لكني عندما تذكرت ما حدث لي قبل قليل، اندفع الحديث مني سيلاً، قصصتُ كل شيء لأبي، منذ أول حلم مع حمزة وأمي إلى الطفلة المسجاة ثم زيارة شيخ تمساح والخاتم إلى قول: «السر في الحجر»، سردتُ تلك التفاصيل مهرولة بينها، كنتُ أقفز بين الكلمات متعجلة، وأبي ينصت مفكراً... ظل صامتاً ردحاً من التفكير، وصرت أترف في حالات الخوف أكثر، قطع أبي تساؤلاتي فقال:

ـــ يبدو أن حياتكِ ستتغير يا حياة!

ـــ ماذا تعني يا أبي...؟

ـــ هل هناك من يعلم عن هذه الرؤى غيري...؟

ـــ فقط سارة...!

ـــ لا شخص غيرها؟

هززتُ رأسي نفياً، ففهم إجابتي كأنما يراني فابتسم ثم قال:

ـــ هي رؤيا يا حياة وليست أحلاماً؛ فالأحلام لا تتحقق بهذه التفاصيل، أنتِ تتقدمين على حياتكِ الواقعية بزمن...

سرحتُ بتفكيري مدة من الحزن ثم قلت:

ـــ وكيف علمت ذلك...؟

ابتسم واثقاً ثم قال:

ـــ تذكري أول مرة روادكِ حلم أمك وحمزة، كم من الزمن استغرقت

ليتحقق برؤية الطفلة المسجاة، شهر... شهران... ثلاثة أشهر... يا ابنتي؟

ثم أردف حزيناً:

ـــ وكم من الزمن استغرقت رؤيتكِ للخاتم الذي وهبك له شيخ تمساح؟

فقلتُ في سرعة:

ـــ شهران ونصف الشهر...

فابتسم أبي مجدداً وقال:

ـــ هذا الحلم لم يكتمل بعد، فما زال الحجر مجهول المكان، بمعنى ما زال هناك شق في الحلم لم يتحقق بعد...

ثم وضع ذراعه على كتفي وقال في قوة:

ـــ لن يصيبكِ شيء يا ابنتي، أنتِ مؤمنة بقضاء الله وقدره، تقومين بواجبكِ تجاه ربك، تداومين على عبادتكِ، لن يصيبك مكروه، تأكدي... دائماً تذكري أن الحياة ابتلاءات، وأن الله سبحان وتعالى يختار من بيننا أناساً يهبهم مصاباً في أقربائهم، أعزائهم، أحبائهم، ليختبر صبرهم، فالنعمة يا عزيزتي امتحان، والنقمة امتحان، والصبر عبادة، والعمل تجلد، والحياة ما هي إلا محطة نعبر منها ولن نتوقف عليها كثيراً... الدنيا دار عمل وعبادة، والآخرة دار بقاء، يختار الله ما يراه مناسباً لنا، رحمة ربنا، رأفة البارئ بنا جعلته يمنع عنا الغيب، ولو أزاح لنا ما تخبئه الأقدار لأصابنا روع لا محالة... نحن عباد الله في أرضه، وعلى العبد الطاعة والرضا والقناعة... انظري يا حياة ما حدث لكِ بمجرد تحقق رؤيا منام، ها أنتي تسرحين

في الحياة خائفة... لذلك لا تبحثي عن شيء ولا تتعجلي... امنحي حياة حياتها، اسعدي بما وهبه الله لكِ من نعم، تقدمي لله بالطاعات، وادعي لوالدتك وحمزة بأن يغفر الله لهما ويتقبلهما... دائماً يا ابنتي أحسني الظن بالله وقري يقيناً بقضاء الله وقدره... «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». (سورة البقرة – الآية: 216).

لأول مرة يتملكني شعور غريب تجاه والدي لا أدري ما هو، فقد بدا أبي أكثر دراية ورصانة ووقار، كان يتحدث بحكمة السنين، يربت على همومي بثقة في الله، غشيتني سكينة وسكنت بين صدري كلمات أبي، قمتُ فتوضأتُ، وقفتُ بين يديّ الله خاشعة أتعشم في راحة، كبرت بعلو حاجتي: (الله أكبر الله أكبر)، ركعتُ بصبري/ (سبحان ربي العظيم وبحمده... سبحان ربي العظيم وبحمده)، سجدتُ بضعفي: (سبحان ربي الأعلى وبحمده... سبحان ربي الأعلى وبحمده)، دعوتُ ربي بكل طمعي ورغبتي ورهبتي، أشهدت الله على استغفاري، حمدته، سبحته وكبرتُ كثيراً، سلمتُ عن يميني وشمالي، دفعتُ بجميع هواجسي ثقة في ربي، رفعتُ كفتَيْ دعائي وبقلب خاشع سألت الله، أشهدتُ الملائكة على توبتي عن كل ذنب اقترفته، عن كل معصيه تلذذتُ بها، عن كل نميمة مضغتها... استقبلتُ القبلة داعية طائعة لربي، وغادرتها قوية ثابتة سعيدة مطمئنة...

منتصف النهار كانت تزورنا خالتي نجاة لتطمئنني على صحة سارة،

تبادلنا أطراف الحديث، حكت لي الكثير من القصص عن الخرطوم، قالت: إن سارة ستجري العملية بعد أسبوع، وإنها تتحسن فقد وجدت عناية فائقة في المشفى الخاص الذي تمكث فيه، أخبرتني أن جدها وأعمامها قد وفروا لها عناية فائقة ولم يبخلوا عليها بمصاريف علاج، أخبرتني أن خالتي عواطف باتت بصحة جيدة، فهناك من تساعدها على العناية بسارة، فالمشفى لا يسمح لخالتي عواطف بالمبيت فلها فريق طبي متخصص في حالتها يتابعها عن كثب، ثم لم تترك شاردة عن بيت جد سارة إلا جاءت على ذكرها، وعندما أكملت نشرتها الإخبارية ابتسمت في هدوء وهي تقول:

- عاد يا يمه حظ الهنا سارة، عناية جد اللقتها، دا المرض ولا بلاش!

وودعتها حزينة...

مر أسبوع وما زال شيخ تمساح يزورني، غير أن جزءاً من الحلم قد اختفى، بتُّ أرى شيخ تمساح عندما يتحول إلى طفل ويلتقط الحجر ويردد: «السر في الحجر»، صرتُ لا أخاف الحلم ولا أهتم به كما كنتُ من قبل، تركتُ الأمور على علاتها، وانحصر تفكيري في كلمات أبي والدعاء لسارة، لم ألتق بدكتور عثمان فقد غاب عن الكمبو تماماً، أخبرني أبي أنه سافر إلى الخرطوم لحضور عملية سارة، هكذا أسر إليه عندما حضر ليودعه صباح اليوم، قال لي أبي إنه سأل عن حالي وإن كان هناك شيء لدي أود أن أوصله لسارة، وإنه عرض على أبي أن أرافقه إلى الخرطوم لحضور العملية حتى أطمئن على صحة سارة، كان أبي يحكي وأنا

صامتة... لا أدري، لكني شعرتُ لوهلة أن أبي أحس أن هناك خطبًا ما بيني وبين دكتور عثمان لكنه لم يصارحني بشيء، هي كلماته التي نفذت إلى عقلي، أحسستُ بشيء من الشوق، حالة ما لا أستطيع تفسيرها، ربما افتقاد أو شيء من الحاجة، لا أدري، فقط وخزة في قلبي عندما ناولني أبي إبريق الماء وقد علق به عطر دكتور عثمان، تعمقتُ في داخلي رغبة جارفة إلى البكاء، أو ربما لعناق، فقط رغبة لفعل شيء غير مألوف، غادر أبي والتفكير لا يبارح قلقي، وما زالت فتيلة أشواقي تحترق مخلفة عبقاً من تنهيد ورعشة...

أكملتُ يومي وسارة تتقاطع ظرفياً مع دكتور عثمان في مخيلتي، أعددتُ طاجن القرع الذي تحبه سارة ولم أتناول منه شيئاً، شغلتُ فكري بتنظيف كل المنزل، ملأت جرار الماء، فعلتُ كل ما في وسعي لأستفز تفكيري حتى حل المساء وصرعني منهكة، أتمدد على سريري أراقب النجوم وأتابع حركة الشهب في سماء الكمبو الرحيمة، أستمع إلى صوت السيارات البعيدة ورياح الشمال الباردة، أتخيل سارة وقد بدت معافاة في كامل عفويتها وابتسامتها فتتسلل إليّ سعادة مؤقتة...

مضى الكثير من الوقت حتى غلبني التعب ونمتُ... استيقظتُ على صوت عربة، جلستُ متعجلة، كان دكتور عثمان يقف مع والدي أمام باب المنزل، لم أتمالك صبري وهرولتُ إليهم حافية، حاولتُ أن أقرأ تفاصيل وجه دكتور عثمان الصامتة، كانت ذرات من الضوء تنعكس عبر صفحة وجهه وباقي ظلال حركة عصاة أبي ترسم على جدران المنزل شبح

تمساح، ارتعشتُ بدون أن أشعر، تبادلا نظرات صامتة حركت مكامن مخاوفي، استدار دكتور عثمان عائداً، وتركني حبيسة النجوى، ذهب ولم يودعني، وبدلا عن ذلك ترك عطره يؤرق ما تبقى من ليلتي، قطع هواجسي أبي وهو يقول:

ـــ الحمد لله رب العالمين... العملية نجحت!

لم أعلق ببنت سعادة، أردف قائلاً:

ـــ حياة! سارة عمليتها نجحت الحمد لله!

ـــ دا قول دكتور عثمان؟

ـــ أيوا يا بنتي.

ـــ الحمد لله رب العالمين، نحمدك ونشكر فضلك...

ـــ لكن الدكتور جا لغرض تاني يا بنتي، عنده عشم سمح والله...

ولم أناقش أبي فيما قاله، لم أحاول أن أستفهم ما أحسستُ به، تركتُ لنفسي مساحة من التخاطر مع عثمان، ونمتُ ليلتي هانئة مطمئنة أحلم بزيارة شيخ تمساح...

الفصل الثالث :

رسالة إلى عثمان :

الحب دثار من شوق وتميمة للحياة...
سأظل وفيةً لأحلامنا...

سلام

إن مِتُّ قبلك أوصيك بالمستحيل...

لـ«درويش».

الإثنين من صيف مايو 1991

طبيبي عثمان... أحتاجك جداً

أتعلم؟ حاولتُ أن أعتاد على مخاطبتك باسمك مجرداً لكني فشلتُ وسعدتُ بفشلي، كيف حدث هذا لا أدري...؟

ما أدركه فعلاً هو حبي لكل تفصيلة صامتة بيننا، كل طريق شهد على صمتنا، متى حدث كل هذا؟ لا أذكر، أعلم جيداً أن ما يربطني بك فوق احتمال عواطفي الصغيرة المجنونة، وأنك سيدي ومليكي، وأنك أول من رأى بياض حلمي وهز نبض حنيني، أفتغفر لي؟

أرجو أن تغفر لي حلماً ودعتك فيه وليس بيدي كسر خاطر بيننا، لقد حدثني أبي عن الرضا بالقدر، ومن يومها وأنا أحاول الهرب من هواجس أحلامي، لكنها لم تصمت، فقد زارتني ذات ليلة حياة الصغيرة، وهي لم تكمل عامها الأول، كان يبدو عليها الحزن والخوف، جلست بجانبي ثم بدأت تهمس في رجاء: «ودعي عثمان، ودعيه»! ثم تبكي قائلة: «عثمان له طفل» لأصحو من حلمي مرعوبة... لا أظن أن تلك الرؤيا أضغاث أحلام، ولا أدري أأسردها عليك أم أصمت إجلالاً لهيبة حب...؟

وصمتُّ خوفاً من فقدك...

أفتسمح لي أن أودعك برسالة؟

أبريل خواتيم فصل الشتاء وبواكير الصيف، يبدو الكمبو معفراً خالياً من مظاهر الحياة، العواصف الترابية المتلاحقة خبأت الجميع في حصون بيتوهم، عجلة الحياة دارت بهم، كل في حال حياته؛ يدبر قوت يومه أو يبحث عن مستقبلة بعيداً عن الكمبو... لم يتغير شيء في الكمبو، هو كما هو؛ بائس صامت، عادت سارة إلى المنزل طريحة الفراش، وهنت أكثر وانتفخت بطنها مجدداً، غير أنها صارت أكثر ابتساماً، لا يهمها شيء.

ظللتُ حائرة أرقب حالتها، وعندما بثثتُ لها مخاوفي أخبرتني بيقينها أن الحياة ما هي إلا لحظات قصيرة يجب أن نعيشها ببذخ، وفعلتُ مثلما أشارت عليّ... بتُ أنظر للحياة بتفاؤل على الرغم من النكبات المتلاحقة التي تصر على مطاردتي، تصالحتُ مع حياتي وتوطدت علاقتي بأبي، صار أكثر اهتماماً بتفاصيلي الصغيرة، بتنا نقضي جل وقتنا معاً، نتناول وجباتنا الرئيسة في غرفتي، أحكي له أحلامي فيستمع إليّ مبتسماً مشجعاً...

خالتي عواطف انزوت مع سارة، تكاد لا تخرج من منزلها، أصبحتُ أقضي ظهيرة كل يوم مع سارة، نقرأ روايات رومانسية يمدنا بها عم سارة، نلعب الليدو والسلم والثعبان، نخطط لمستقبلنا في الكمبو، تنازلت سارة عن أحلامها خارج حدود الكمبو، فأصبحت تحصر تفاؤلها في العيش للشتاء القادم، لم أستطع منح سارة أملاً في الحياة ولم تكن لتستقبل مني أكذوبة حياة، صارت بيننا مسافة من صمت ووجع أنفاس، لم أستطع ترميم طريق شائك ولم تهزمني مخاوفي أكثر مما فعلت بي، أحسستُ أنني لا أملك حقاً في المطالبة برغد عيش، وانهزمت أحلامي أمام داء سارة،

تحطمت جميع حصوني وأمسيت عارية إلا من يقين دعاء واستجابة من رب العزة، كان لزاماً عليّ أن أصمت عن شوقي لدكتور عثمان، أن أحيا بمغامرتي معه صامتة، لم أستطع فتح هوة سحيقة للعلن فتوجستُ وحيدة...

بلغت حياة خمسة أشهر من عمرها، منحتنا فيها ضوضاء سعيدة، هي فقط من تربطنا بالشغف... توقفت الأحلام عن زيارتي إلا لماماً فصرتُ أتفقد حجر الياقوت الذي خبأته بعناية في خزانة ملابسي، هو الآخر همد لمعانه كأنما أصابته عدوى أحزاننا المدسوسة...

الأيام كلها سواء؛ لم يكن هناك من شيء يدعو للابتسام، غاب دكتور عثمان عن الكمبو لأكثر من شهر، سافر إلى الخرطوم لحضور مؤتمر طبي يُعقد سنوياً كما قال لأبي، لم نلتقِ بشوقنا، ولم يمنحنا الكمبو صدفة حب كانت جميع لقاءاتنا صدفاً مؤجلة، كنتُ أشتاقه متوجسة، لم يفارق عطره أنفاسي، احتفظت بها ذاكرتي على رف عتيق، أزاحت عنها غبار الغياب فصارت سلوتي.

لم أستطع البوح بمكنونات خواطري لغير كتبي المرصوصة على المساحة المتقدمة من نافذة غرفتي، داومتُ على القراءة فتفتحت الأوراق في ذهني، طاوعني القلم وكتبتُ عن كل ما يعتريني من ألم وبؤس، خضتُ معارك كبيرة، ككتُ حصوناً منيعة، سافرتُ إلى الخرطوم، التحقتُ بكلية علم النفس، قدتُ حزباً سياسياً، ألقيتُ خطباً في ساحات النقاش، التقيتُ بدكتور عثمان في ظروف مغايرة، أحببته وشاع أمر عشقنا بين الجميع،

صرتُ كاتبة مرموقة وصار طبيباً مشهوراً، احتضن الورق جميع أحلامي، احتمل كل تقلباتي، وحاورني بالتي هي أحسن، كان منطقياً في صمته ثائراً في شكواه، هكذا فارقتني هواجس الوحدة واخترت لي صديقاً جديداً أجده وقتما تجتاحني مشاعر الخوف من فقدان سارة التي أصبحت تجمعني بها لعبة ودموع وحزن يخترق سعادتي المنبوذة...

عاد دكتور عثمان إلى الكمبو ولم نتقابل، مضى أسبوع على عودته ورياح الكمبو في كل مساء تلفحني بعطره فأتقلب على فراشي مشتاقة أكثر، حاولتُ أن أخلق لنا صدفة مؤجلة لكن جميع أبواب اللقاء موصدة، احترتُ، لم أعد أدري أهي الأقدار تبعدنا أم أحلامي ونبوءة حياة عن وجود طفل في حياته، أم أنه هو من اختار الغياب متعمداً؟! كان هناك شيء ما في حديث أبي يجعلني أعيد تفكيري، كلمات أبي عندما زارنا دكتور عثمان بعد إجراء عملية سارة: «لكن الدكتور جا لغرض تاني يا بنتي... عنده عشم سمح والله»...

تلك الكلمات تسكن ذاكرتي وتحاورني كثيراً، ترددتُ كثيراً في سؤال أبي عن سر تلك الزيارة، حاولتُ فتح نافذة تلفحني ببصيص فرح، بيد أن جميع نوافذ أسرار أبي مغلقة أمام تساؤلاتي الصامتة، ولم يعد دكتور عثمان يتردد على زيارتنا، حتى حاج مكي والده قلت زياراته، فتفاقمت وحدتي أكثر، وتطور مرض سارة أكثر، وحزنت خالتي عواطف أعمق...

رمضان على أبواب الاستقبال، تقدمه رجب بشعائره الجميلة، سكن الجميع في تهجدهم وصيامهم يستبشرون بالشهر الفضيل، نساء الكمبو

تفرغن لعواسة الآبري الأحمر والأبيض، الجميع منهمك في الإعداد لرمضان إلا خالتي عواطف فقد لزمت سارة ويتنفسها حزن مكبوت، الأيام تمر بروتين ممل، والأحداث تقف في انتظار فعل مباغت يهز بيوت الكمبو، ظللتُ أردد في مناجاتي أننا نحتاج لحدث عظيم يجعل الكمبو يصحو من ثباته لتدب فينا حياة جديدة، ظللتُ معلقة بتلك الأمنية إلى أن جاء نهار الثالث عشر من رجب.

كان أبي قد ذهب مبكراً كعادته إلى الخلوة وأنا مع سارة نتبادل أطراف حزننا، تفاجأنا بصوت حاج مكي منادياً باسمي من على سور المنزل، خالتي عواطف هرولت إليه مذهولة، وجدته يحمل عصاة أبي الحديدية مرتعشاً، دنوتُ منه في رعب وخاطبته مخاوفي قبل لساني:

ـــ الحاصل شنو يا حاج مكي...؟

كانت خالتي عواطف مرساة نجاتي من خوفي:

ـــ ما في حاجة... بس شيخ إمام عتر قدام الخلوة...

ثم ارتفع ببصرة إلى السماء وهو يقول:

ـــ يا رب تستر وتخفف البلاء!

ـــ حاج مكي الإمام ما لو...؟

ـــ عتر.. شالوه أولاد الخلوة وهو في بيتنا معاه عثمان...

دقائق وكنتُ أقف أمام منزل حاج مكي، وجدتُ دكتور عثمان يجلس في راكوبتهم يقلب في صحيفة...

ـــ يا أبوووووي.... أبوي وين؟... أبوي وينو؟

جاءني دكتور عثمان مسرعاً، أمسك بيدي وهو يقول مطمئناً:

ـــ أبوكِ كويس يا حياة، ما تخافي، وطي صوتك!

ـــ وينو أبوي؟ عاوزة أشوفه، وديني ليه...

يا أبوووي، أحيبي يا أبوي...

يرقد أبي في غرفة واسعة على سرير خشبي، أنفاسه تخرج بهدوء ويغط في صمت مهيب، فتحتُ فمي فاختنقت صرخاتي بكف دكتور عثمان على فمي، قادني إلى زقاقهم ثم بدأ يقول:

ـــ حياة أبوكِ كويس، ما تخافي!

ـــ لا ما كويس أبوي، ما لو ما بتكلم؟ الحاصل عليه شنو يا دكتور؟

وأكملتُ ما تبقى لي من استفسارات باكية، عانقتُ دكتور عثمان خائفة، فتلقفني مطمئناً، احتوى كل مخاوفي بثباته، ربت على شغفي بأصابع واثقة، مسح على دمعي بأنفاسه، تقبلني كما أنا، منحني ذاكرة جديدة للحظات كانت ضائعة بيننا، وبعد أن هدأتُ من نوبتي قال لي وعيناه تعانق عينيّ:

ـــ أبوك تعثر نتيجة لانخفاض معدل السكر في الدم، جاء به الطلاب إلى منزلي لأنني الطبيب ليس إلا... لحق بكِ أبي إلى منزل عواطف ليخبرك، وقبل ذلك كان قد عرج على المسجد ليحمل عصاة والدكِ...

ثم ابتسم مازحاً وهو يقول:

ـــ أبوكِ ما فطر يا بت، كل الحكاية، جعان بالعربي...

وابتسمتُ رغماً عني فواصل مزاحه قائلاً :

ـــ أكلناه وأخد جرعة السكري وهسى بشخر وحياتكِ...

قضي أبي في منزل حاج مكي إلى ما بعد صلاة المغرب، وعدنا بعربة دكتور عثمان يلفنا صمت الطريق، لم أتحدث ولم يكن في نيتي فعل شيء، فقد بتُّ منهكة ومشتتة، دكتور عثمان، مهندماً كعادته معطراً ذاكرتي بتفاصيله الرجولية، ظل يراقبني بالمرآة العاكسة، تعمد أن يطيل المسافة إلى بيتنا ولم ينتبه له أحد سواي، لاحظ أبي صمتي فقال في اعتدال:

ـــ حياة إنتِ وين...؟

ـــ جمبك يا أبوي...

ـــ أنا كويس... ما تخافي !

ـــ الحمد لله يا أبوي، ما تشوف شر تاني

كنتُ أجلس قربه لا يفصلني عنه شيء سوى بضعة إنشات تجلس عليها عصاه الحديدية...

ـــ أيوا يا حياة أبوكِ كويس اطمني!

ثم أعقب حاج مكي القول:

ـــ حياة يا بنتي، خلّي بالك من أبوكِ!

فداهمهم دكتور عثمان مازحاً:

ـــ قلنا ليها ما تجوعي أبوكي، سمعتي يا بت!

وأخذ الجميع يقهقه، ولم أتناول معهم لقمة واحدة من طبق سعادتهم، لا أدري ماذا حل بي، حزن دفين يتسرب إلي أوردتي، طاقة سالبة تلجمني، وخوف من مصير مبهم يحاصرني، فجأة تراءت لي كل الأحلام السابقة، تذكرتُ رؤى كانت تزورني وتوقفت ريثما يصفو لها الطريق، رأيتُ حياة

الطفلة تبكي وحيدة، أبي مريضاً، سارة خائفة، مرّ من أمام بصري شريط طويل يحمل مصائر مبهمة وأخرى معلومة، أشياء كثيرة عن الكمبو بدأت تخبو وأخرى تظهر، غبتُ عن زماني لكثير من التوهان، وعدتُ إلى منزلي وأنا أكبر هماً...

ـــ غداً إن شاء الله موعدنا...

كانت هذه كلمات دكتور عثمان وهو يودعنا.

وضرب لنا القدر موعداً لنلتقي فيه بشرعة الشوق، تلك الليلة تقلب أبي كثيراً أثناء نومه، كوابيس كثيرة زارته، كان ينادي باسم جميع أموات الكمبو، الرجال منهم والنساء، حتى الذين فارقوا الكمبو منذ أمد طويل جداً ومحتهم ذاكرة الجميع، ومنهم والدة دكتور عثمان، جلستُ على شهقاتي أتابع أبي، كان يصحو ينفث عن يساره ثم يعاود النوم على شقه الأيمن، تزوره أمي فيصرخ باسم حمزة ليستيقظ مذعوراً، لم يسلم أبي لنومة هانئة إلا بعد أذان الفجر، ولم أنل قسطاً من إغماضة جفن قلق إلا بعد صياح ديك حاجة نفيسة، مدة قصيرة واستيقظتُ وجلة إثر كابوس آخر راود أبي وهو يصرخ باسم سارة قائلاً:

ـــ لسا بدري يا سارة، ماشة وين...؟

هذا هو فقط ما كان ينقص قلقي، وقفتُ أمام رأس أبي معلنة خوفي على سارة، محققة عن كابوس زار أبي إثر ليلة يشكو فيها من انخفاض مستوى السكر في دمه...

ـــ ما في شي يا حياة، دا حلم...

وأخذ يردد المعوذتين والإخلاص، وقام إلى صلاة الضحى تقوده مخاوف من مصير مجهول، لم أدع ذلك الكابوس يمر مرور الكرام فقد خبأته ذاكرتي وأمسيتُ أتفقده كلما اشتد المرض بسارة وكلما واتتني منية الأحزان...

في الضحى تناول دكتور عثمان وجبة الإفطار مع أبي، وقفتُ على خدمتهم بكل سعادتي، برعتُ في عمل العصيدة وملاح الروب الأبيض وأكملتُ التحلية بالشعيرية، ظل دكتور عثمان يتابعني في كل حركاتي يبتسم ويغمز ويداعب أبي بقفشاته المتواصلة، بعد الفراغ من الإفطار تناولنا الشاي في راكوبتنا المطلة على زريبة غنم حاجة نفيسة، كانت الغنيمات تثغو مع صوت ضحك حياة الصغيرة، باغت دكتور عثمان أبي وهو يراقبني عندما قال:

ـــ ما أجمل أن يكون في المنزل طفل صغير!

ـــ أجل يا دكتور عثمان، ما أعظم نعم الله علينا حينما يمنحنا روحاً صغيرة نراها تكبر أمام شبابنا وشيخوختنا!

ثم يتأوه أبي ويسرح بتفكيره...

ـــ أتدري يا دكتور عثمان أنني ما زلتُ أحتفظ بقرش صغير كان يلعب به حمزة...

ثم يصمت أبي ويبدو الحزن جلياً على ملامحه وصوته حينما يقول :

ـــ ما زلتُ أفتقد حمزة، صوته المبعثر في أركان المنزل، ما زلتُ أتحسس رسوماته على حائط خلوة المسجد...

آه يا دكتور عثمان، لن تعلم مدى فقدي لحمزة، هو رجل صغير، كنتُ

أعول عليه ليساعدني عندما يكبر، أحياناً أحلم بأبنائه يلعبون في الفناء الأمامي للمنزل، وأحيانًا أخرى أشبههم بأطفال الخلوة... ليس لنا يدٌ في أقدار الله يا دكتور، ليس لنا يدٌ... الحمد لله رب العالمين، ليس لنا اعتراض على قدر الله...

ثم نصمت جميعاً وفي معيتنا أسئلة كثر، لم أكن ضمن أحلام أبي، لم يذكرني ولو حتى لمجرد تعويض له، كأن حياة تبادلت مكانها مع حمزة في عالم البرزخ، تصاعدت الدموع إلى حنجرتي وامتلأت مآقي بغضب وحزن وخوف...

ـــ حياة يا ابنتي الحبيبة...

صرخ أبي خائفاً كأنما استعاد وعيه من غيبوبة طويلة، مدّ يديه يبحث عن طمأنينة، أمسك به دكتور عثمان ثم انتزعني من حزني وشبك أيادينا معاً وهو يقول:

ـــ أتعلم يا شيخ إمام ماذا تحتاج...؟

ـــ أعلم أني أحتاج لابنتي الكريمة حياة، ابنتي التي لم تشكُ، تحملت في صمت... ليس لي كلمات مناسبة أعبر بها عن حبي لحياة، فقط أقول لها إنها «حياة لما بعد الحياة»...

لم يعد ذلك المكان يتسع لنا، كبرنا حزناً وصغرنا سعادة، تعانقنا متوجسين وبكينا مطمئنين، ظل دكتور عثمان يتابع مشاعرنا المبذولة في صمت وتفكير، لم ندر كم من الحنين صمتنا وافتقدنا إلا بعد أن قطع حبل وصالنا دكتور عثمان بقوله:

ـــ شيخ الإمام... لا زلتُ عند طلبي فهل تسمح لي...؟
ـــ وهل نجد من يصون حياة أفضل منك...؟

وابتسما في آن واحد، ظللتُ أقفز ببصري بينهما، أبحث عن حل لتلك الأحجية التي بدأت تظهر بعض الحلول لأطرافها، فهمتُ أن دكتور عثمان طلبني للزواج ولكني لم أكن واثقة، ولعل السبب في ذلك يعود لأسباب كثيرة، فدكتور عثمان يكبرني بنحو ستة عشر عاماً، توقع الجميع زواجه من إحدى بنات الخرطوم لذا لم يكن من ضمن فرسان أحلام بنات الكمبو، كما أنه تزوج وطلق زوجته الخرطومية ولم يرها أحد في قفار الكمبو، كان منذ صباه يختلف عن بقية الصبية في عمره، هكذا يتحدث عنه أهل الكمبو، مهذباً يلتزم بدروسه ومساعدة والده، يقول البعض إنه انطوائي نسبة لموت والدته في الأسبوع الأول بعد إنجابه... وسبب آخر جعلني استبعد احتمال طلبه للزواج مني هو تعفف حالنا؛ فمعاش أبي الذي يتقاضاه من هيئة الأوقاف عن إمامة المسجد بالكاد يكفي لحاجاتنا اليومية، وفي المقابل حالتهم المادية الميسورة؛ فحاج مكي يملك متجر مصوغات ذهبية في الخرطوم يشرف على إدارته ابن أخت زوجته الراحلة شقيق دكتور عثمان في الرضاعة، وأهم سبب جعلني أستبعد احتمال طلبه هو الفارق التعليمي بيننا، فمازلت أنا في المرحلة الثانوية... سرحتُ بعيداً بتفكيري وصمتا يرقبانني...

ـــ أتسمح لي يا شيخ إمام أن أتحدث مع حياة...؟
ـــ بالطبع أسمح لك...

ثم غادرنا أبي تقوده عصاه الحديدية...

تنحنح قليلاً دكتور عثمان وهو يراقب أبي مبتعداً، اعتدل في جلسته، وثبت بصره علي حيائي حتى عجزتُ عن النظر إليه فطأطأتُ شغفي خجلاً ثم قال:

ـــ هل تقبلين بي زوجاً يا حياة...؟

ثم رفع يده اليمني مثبتاً كلماتي، وقال:

ـــ لا أريد جواباً الآن، خذي وقتكِ وفكري ملياً، وتذكري أن الحياة ما هي إلا فرصة نقتنص منها ما يقع على طريقنا، والسعادة لن تنتظر مغيثاً ليهبها ابتسامة، لن تسعى إلينا الأحلام ونحن جالسون نتكئ على هزائمنا الماضية، لن يكون الخذلان متوارياً ونحن في طريقنا إلى المجد، سنقع يا حياة، سنبكي، سنتوب، ولكنا لن نندم على خوض معركة يكون نصيبنا منها غنيمة حياة... حياة لعلكِ تتساءلين عن سبب رغبتي في الزواج منك...؟ ولن أجيبكِ، أتعلمين لم؟

سأترك ذلك لفراستكِ، فالأنثى مثلك لن تحتاج لتأشيرة مرور لتنال ختماً على جواز سفر إلى قلب رجل عاش حياته في قفر الكمبو، تلقى تعليمه الجامعي في عاصمة تفتح أذرعها للمارة، لن يستطيع أن يميز فيها الخبيث من الطيب...

حياة... أنا رجل قروي، أحب هذا الريف، هذه الديار، منازلنا من الجالوص، رائحة الروث، جمال الطبيعة، غروب الشمس وشروقها على أساطير شيخ تمساح، أهازيج طلاب الخلوة، طيبة معشر الجميع، وأهم

من كل ذلك الصدق يا حياة...

عزيزتي حياة، لن تدركي معنى أن تتحدثي مع شخص يجنح بتفكيره عند كل كلمة وإيماءة، أناس تضطرين لمجاملتهم حتى ترسو مركب مصلحتكِ معهم... لقد عانيتُ كثيراً يا حياة في الخرطوم، خذلتُ من كُثُرٍ حتى تعلمتُ الدرس جيداً...

حياة...

أنا أحاول أن أكون صادقاً معكِ، وأدركِ أنكِ تبادلينني شعور راحة، اخترتكِ يا حياة بعد تفكير طويل، فحياتكِ تشبه حياتي إلى حدّ كبير، ما يجمعنا يا عزيزتي فقدان أمومة، وما نستطيع بناؤه يا حياتي قلعة حب وحصن منيع من الثقة....

حياة أنتظر ردكِ...

مرت ثلاثة أيام من عمر لقائي بدكتور عثمان وما زلتُ حبيسة خوف وشكوى، لا أدري ما سر الرغبة العارمة التي سيطرت عليّ في الرفض، أهي المسؤولية التي ألقاها دكتور عثمان على كاهلي، أم توقعي لكلمات حب تشذب أفكاري ولم أفلح في التقاطها ولم يكذب في إلقائها، كان واضحاً صادقاً أكثر مما يجب، وبتُّ مترددة أعمق، لعل تلك اللقاءات المتفرقة التي كانت بيننا قُبيل طلبه للزواج قد بنتْ لي قصوراً من الأحلام الزائفة عن حبه وعشقه، طاردتني الهواجس ظلت تلاحق أيامي بلا هوادة، وعلى الرغم من كل ذلك لم أستطع أن أرفض، فكرتُ كثيراً أن أصارح سارة وأطلب رأيها، بيد أني ترددتُ خوفاً من أن أنكأ جرح أحلامنا الموءودة،

وسكنتُ في صراع مخيف؛ أأطلب النصح من خالتي عواطف؟ أم أفرغ ما في جعبتي من ألم لسارة؟ وكيف أفسر صمتي إن ذاع خبر خطبتي؟ أشياء كثيرة ظلت تهاجمني وتفترس مني ما تبقى من صبر...

استيقظت هذا الصباح منزعجة، فلقد عاودني حلمي الغريب، زارتني فيه حياة الصغيرة، كان يبدو عليها الحزن والخوف، جلست بجانبي ثم بدأت تهمس في رجاء: «ودعي عثمان، ودعيه»، ثم تبكي قائلة: «عثمان له طفل»، كان ذلك الحلم كفيلاً بترجيح كفة بث همومي لسارة...

سارة ترقد على فراشها شاحبة بعد أن انتشرت البقع الصفراء على أجزاء متفرقة من جسدها فبدت أكثر نحولاً، برزت عظام فكها وغارت عيونها، جلستُ بقربها حزينة مهمومة أمسك بيدها، شدت على قبضتي، طافت ببصرها على وجهي، تحدثت في مناجاة، عانقتني صامتة، وفهمت ما ألم بي من غير أن أنطق بكلمة واحدة، قالت:

ـــ أفصحي يا حبيبتي، ماذا هناك...؟

تدحرجت دموعي ترسل إشارات استغاثة، تلقفتها بيد مرتجفة ثم جلست بصعوبة وهي تقول:

ـــ ليس هناك شيء في هذا العالم يستحق كل هذا العناء...؟

حياة حبيبتي، لن تستطيعي بلوغ السعادة وأنتِ تحملين هماً يمنعك من التنفس، الحياة هي تجربة جميلة نحياها لمرة واحدة، حاولي أن تستثمري جميع لحظاتها مبتسمة، تذكري أحلامنا واسعي لتحقيقها بقوة إرادتك، فمازال الطريق أمامكِ مُضاءً...

وبكت سارة بقوة، وصمتُّ أراقب جسدها وما حل به، أجتر كلماتها وأنصت لداء الحكمة الذى حل بها، رمقتني بنظرات متفحصة ثم قالت:

ـــ يبدو أن القصة وراءها زواج، أليس كذلك...؟

وابتسمتُ باكية، فقالت:

ـــ من يكون؟

وقبل أن أجيب صرخت بقوة وهي تقول:

ـــ دعيني أحزر...!

وصارت تعدد أسماء من شباب الكمبو، وأنا أهز رأسي بالنفي، ولم تعرج على دكتور عثمان ولو بالصدفة، باءت جميع محاولاتها بالفشل، ثم وبعد أن تسلل السأم إلى نفسها قالت:

ـــ من يكون؟ لقد فشلتُ، أنا الآن سارة بنت عواطف الطيب أعلن هزيمتي أمام سر حياة الإمام...؟

طأطأتُ خوفي من وجهها، وخبأتُ سعادتي عن صبرها ثم قلت بصوت خفيض:

ـــ هو دكتور عثمان...

صرخت سارة بعلو فرحها وسعادتها، صرخت بكل صحتها وحبها للحياة، عانقتني باكية، وعانقتها مشلولة، لم أستطع مشاركة سارة تفاصيل تلك الفرحة، ظللتُ معلقة كطائر فقد أمه على شجرة اللبخ العتيقة...

بدأت سارة في الحديث وأنفاسها تصدر غنه كثيفة:

ـــ لم أتوقع أن يتحقق حلمنا بهذه الطريقة يا حياة، أتعلمين يا حياة... سبحان الله، لو كنا نكتب لما استطعنا أن نصيغ سيناريو يليق بتحقيق أحلامنا هكذا!

قلت لها في انزعاج وتساؤل:

ـــ ماذا تعنين...؟

ـــ أعني يا عزيزتي أن دكتور عثمان هو المنقذ الذي سيساعدكِ على تحقيق أحلامنا، طبيب ميسور الحال، على قدر من الوسامة، نال قسطاً كبيراً من التعليم، والأهم من كل هذا لا يسكن في الكمبو...

ثم سرحت بتفكيرها كأنما ترسم حياتها بريشة وقالت:

ـــ أقصر الطرق إلى الخرطوم، الجامعة، الحرية، الأحلام، والحياة يا حياة هو زواجكِ من دكتور عثمان، إلى متى ستظلين تربطين حياتكِ بالكمبو، الكمبو القديم لا حياة ولا راحة ولا مدنية ولا أحلام محققة...

قاطعتها ثائرة:

ـــ لكن دكتور عثمان من هذا الكمبو،الذي يعجبكِ، ولد هنا وعاش هنا...

ـــ نعم هو من الكمبو لكنه تربى في المدينة، تفوق في دراسته وركض خلف أحلامه فحققها بإرادته...

ـــ وما هو الفرق يا سارة بين الريف والخرطوم، الكمبو هو جزء من المدينة، لن تعثري على حياة مدنية كأحلامكِ بينهما...؟

ـــ على الأقل ستخرجين من هذه القفار البائسة، لتدخلي مجتمعاً جديداً

يهبكِ قوة لتحقيق أحلامكِ...

ـــ الأحلام لا تحتاج لمجتمع حتى تتحقق يا سارة، الأحلام نحققها بالمثابرة والاجتهاد و...

ـــ واقتناص الفرص المناسبة... ودكتور عثمان فرصة، محارة، ياقوتة وقعت في طريقكِ أفتتركينها لغيركِ...؟

وتذكرتُ حلمي، وزيارة شيخ تمساح، مرت من أمامي غمامة من مستقبلي ودكتور عثمان، تذكرتُ كلماته عن الفرصة، قلبتُ كلمات سارة ووجدتها تتفق في كل شيء بمنطق دكتور عثمان، وليس للقلب مكان في كلماتهما...

زارنا دكتور عثمان في المساء، طلب مني أبي إعداد شاي المغرب لهم، أعددته ولم أشاركهم الجلسة، ظل معنا لوقت متأخر من تلك الليلة حتى أذان العشاء... استلقيتُ على سريري في الحوش متعبة أفكر، ناداني دكتور عثمان من على سور المنزل، وقف يلفه الظلام ورأسه يطل من أعلى السور، سمعتُ صوت ارتطام شيء أسفل السور، أسرعتُ من خطواتي، بحثتُ أسفل السور، وجدتُ كيساً صغيراً من القماش يثقل حمله، تواريتُ به متعجلة في غرفتي، أنرتُ الفانوس، يلفني شوق هائل للمحتوى، كان الكيس القماشي من الساتان الأحمر، له شريطان ذهبيان طويلان معقودان على شكل فراشة، حللتُ العقدة فانفتح الكيس على مفكرة بعنوان: «رسائل إلى حياة» بقلم حياة الإمام، له قفل صغير على شكل قلب، مظروف أنيق باللون الأبيض لاح لي من داخل الكيس، تلمع

على سطحه فراشة ذهبية وعلى جناحيها وردتان حمراوان، وعلى أسفل الظرف توقيع صغير يحمل اسم «عثمان مكي»، كُتِبت في وسطه عبارة كبيرة باللون الأزرق «رسائل إلى حياة»...

قضيتُ تلك الليلة أتنفس رائحة دكتور عثمان وأتفحص الكيس بمحتوياته من غير المحاولة في فتح المظروف، زارتني حياة الصغيرة في الحلم، كانت أكثر حزناً، تبدلت ملامحها وبدت لي أكبر سناً، ظلت تردد: «دعيه دكتور عثمان، له طفل»، استيقظتُ وجلة منهكة، ظل رأسي يدور كأنما مزقته فأس كبيرة بلا هوادة، لم تغب عني كلمات سارة، ولم أنس طلب دكتور عثمان، ظللتُ أتقلب بين دفتي مركب يستغيث من الغرق ولم أجد لي معاوناً أو مغيثًا يقيني شر التعجل في حكم منصوب بالقبول أو الرفض... انهمكتُ في أداء واجباتي المنزلية ورأسي تتخبطه المحاذير ويرفرف عليه طائر الفينيق، أنا محتارة؛ ماذا أفعل؟ هل أقبل بدكتور عثمان زوجاً لي وأقتنصه كفرصة مواتية لتحقيق أحلامي المزعومة كما قالت سارة؟ أم أرفض هذه الزيجة وأحيا بين جدران منزلي وصمت أبي؟ هل بزواجي سأحقق أحلامي أم أحلام سارة...؟ أأكون سعيدة وأنشد الراحة التي تخيلتها...؟ وما مصير أبي من كل هذا التدبير...؟ فجأة قفز إلى رأسي مصير أبي... هرولتُ إليه لأجده يجلس على سجادة الصلاة يردد في أوراده، قلت في عجلة وأنفاسي العالية تسبقني إليه:

ـــ أبوي، أنا لو عرست دكتور عثمان... ما بخليك وراي...

ينصت أبي في الفراغ بيننا مفكراً ثم يضحك بصوت عالٍ، ليقف متمهلاً

ململماً عراقيه، ثم يتكئ على عصاه، ويخرج من الخلوة ويدفعني أمامه وهو يقول:

ـــ وأنا كمان ما بخليك وراي...

ويخرج متعجلاً من المنزل... وقفتُ كثيراً أراقب طيف أبي وهو يغيب متوارياً عن بصري بين شجيرات الكمبو المبعثرة، لا أدري ما الذي حل بأبي، صمته هذا دفع بتساؤلات عدة إلى ذهني، لماذا لم يناقشني في أمر هذا الزواج؟ أهي موافقة مبطنة أم رفض مقلق؟ ولم أجد إجابة تُشفي غليل فكري... مضى اليوم مسرعاً بعد أن قضيتُ النهار في منزل خالتي عواطف، كانت سارة تغط في نوم عميق، ساعدتُ خالتي عواطف في نظافة المنزل ولم نتبادل أطراف حديث غير مواساة أحزاننا، كنا صامتتين نؤجل أحاديث مبتسمة إلى حين استيقاظ سارة، ظللنا نتفرس بعضنا ونتبادل مخاوفنا ونحن مجبرتان على التماسك، لم تجرؤ ابتسامة أن تخرج لنص مفقود بيننا، ولم نجد ما يجمعنا لذا ودعتُ منزل خالتي عواطف مبكرة وعدتُ إلى غرفتي يلفني خوف كثيف...

حل المساء وما زلتُ أعدو هاربة من هواجسي، لم أجد مكاناً لأختبئ فيه، في كل ركن وكل زاوية تقف قبالتي بعيني رقيب وسبابة، كل شيء لا يبدو كما هو عليه، همٌّ عميق يسكنني، وجع مخاض أسفل بطني يشاطرني توجسي.. سمعتُ صوت دكتور عثمان وحاج مكي أمام فناء المنزل، خرج إليهم أبي مرحباً، كان الحوش يستقبلهم بثلاثة سراير حديدية مفروشة بشراشف شددتها عليها حديثاً، وعلى جانب سرير أبي تقبع منضدته

العتيقة تجلس عليها حافظة ماء صغيرة وكوب متوسط الحجم، جلسوا جميعاً وأنا أراقب أساريرهم المبتسمة، طلب مني أبي بصوته الجهوري أن أعد لهم شاي المغرب...

انهمكتُ في إعداد الشاي وكل جزء مني معلق بتلك الجلسة التي تتوسط منزلنا، تذكرتُ المفكرة التي أهداني إياها دكتور عثمان، والمظروف الذي لم أفتحه، قدمتُ الشاي على عجل وأسرعتُ إلى غرفتي لأفتح المظروف، فضضتُ تلك الورقة بقوة ووجدتها خالية إلا من مفتاح صغير على شكل قلب خمنتُ أنه يخص المفكرة، تعجلتُ وأدرتُ المفتاح على القفل.

أول ورقة وُضِعت عليها وردة حمراء مجففة، قربتها إلى أنفي فتسللت إلى رئتي رائحة دكتور عثمان، قلبتُ المفكرة ولم أجد بها حرفاً واحداً، خالية تماماً، ولم أصدق عينيّ، تفقدتها للمرة الثانية والثالثة ولم تحالفني الصدف في إيجاد كلمة تدلني على شيء غير العنوان... تساءلت كثيراً ما سر هذا الإحباط الذي انتابني بعد رؤيتي لما بداخل المفكرة، هل تعلقتُ بآمال كبيرة داخل هذه السطور الفارغة، هل توقعتُ شيئاً ما..؟

وجدتُ أني فعلا قد أعملتُ وبالغت في توقعي، ظننتها تحمل رسالة حب أو عشق ربما، لكني لم أجد بها شيئاً غير سطور خالية تؤرق هواجسي أكثر فأكثر... سمعتُ صوت خطوات أبي البطيئة تقترب من الغرفة، أغلقتُ خزانتي بسرعة، ووقفتُ أمام باب غرفتي مترصدة أبي، اقترب أبي ثم نادى بصوت عالٍ...

ـــ نعم يا أبوي

ـــ عمك حاج مكي والدكتور بدوروا تحديد يوم العقد، واحد وعشرين رجب كويس...؟

ولم أنبس ببنت معجزة، صمتٌ مستغيثة، صرختُ تائهة، لم أسعد ولم أحزن، شعور غريب يداهمني، لم أستطع أن أبرهن ما علتي أو أن أقتص من شيء غائب، شيء ما يشدني للخلف، وغبت عن الوقت والمكان...

ـــ حياة...؟

ـــ كويس يا أبوي...

وانصرف أبي حاملاً موافقتي بابتسامة وشغف، لا أدري كيف قلتها: «كويس» بكل هذه البساطة، كيف خرجت مني تلك الموافقة بسلاسة وبدون تعقيد، أهو نصيبي كما تقول خالتي عواطف دائماً: «القسمة لمن تحصل تاني ما في زول يقدر يقول بغم»! أهي هذه القسمة المزعومة...؟ لا أعرف حقاً، لا علم لي بما حدث، ولن أتوقع حدوث شيء بعد اليوم...

حل صباح واحد وعشرين رجب سريعاً، مرّ الأسبوع الماضي ببطء ووحشة لم أعهدها من قبل، كنتُ كنهر فقد مصبه يبحث عن نبع ليعاشر تربة جديدة، ذاع خبر خطبتي في الكمبو وأتى الجميع يبارك ويهنئ، التزمتُ بالبقاء في المنزل ولم أتمكن من زيارة سارة إلا مرة واحدة... تبدو على جميع المهنئين السعادة، افتقدتُ صباحات خالتي عواطف أمي الثانية، افتقدتُ نكات سارة، كانت حاجة نفيسة وخالتي نجاة يقمنْ بالتجهيز لعقد القران، لم تواتني الفرص لملاقاة دكتور عثمان والحديث معه، كانت هناك الكثير من الأسئلة التي تنادمني وأحتاج الإجابة عنها... حاولتُ

إيجاد فرصة مواتية للانفراد بدكتور عثمان ووجدتها في ليلة العشرين من رجب، كان أبي في المسجد، فالليلة مميزة على الكمبو يجتمع الكل في المسجد لختمة القرآن كما هي العادة، وجدتها فرصة مناسبة وأنا أجلس في حوش المنزل عندما تسرب عطر دكتور عثمان إليّ، ناديته بصوت يكاد يكون همساً وسمعته يلبي النداء...

ـــ السلام عليكم!

قالها بهدوء وهو يقف على مسافة تتيح لي تبين جلابيته السمنية، تنفستُ صعداء شوق وقلت في مرح:

ـــ فقط لي سؤال وشكوى...

فقال في توتر:

ـــ مما تشكين...؟

ـــ لا شيء ذا أهمية، هناك سؤال يثير مخاوفي إن وجدتُ إجابة عليه ستزول شكواي...

فرد في نفاد صبر:

ـــ تحدثي يا حياة، ماذا هناك...؟

تنفستُ بسعادة ثم ابتعلتُ تنهيدة عميقة وقلت:

ـــ رسائل إلى حياة، ماذا تعني والمفكرة فارغة المحتوى...؟

أكاد أستمع لصوت قهقهة واضحة، فنفد صبري وأنا أقول:

ـــ وما سبب الضحك الآن...؟

ـــ لا شيء يا عزيزتي، كل ما في الأمر أني تركتُ في عهدتكِ كتاب

حياتنا القادمة معاً إن شاء الله، ستكتبين عليه أنتِ...

ثم قطع المساحة الفاصلة بيننا، وتوقف بمحاذاتي حتى وقعتُ أسيرة لظله ثم قال:

ـــ أح ب كِ!

وابتعد تاركاً شوقي يقتص من غيابه... نمتُ تلك الليلة هائمة في دنيا دكتور عثمان، سعيدة أطير كالفراشة بين كلماته، وبدأتُ في كتابة رسائلي، أفرغتُ كل ما في جعبتي؛ كتبتُ عن فرحي، حزني، خوفي، شوقي، هواجسي، ونمتُ قريرة عين أعد الثواني لعيد الفطر حتى يكتمل زواجنا الميمون...

أيوووووويا أيوووووويييا أيوووووويييييييا

مبرووووك مبرووووك مبرووووك

بيت مال وعيال... بيت مال وعيال

ربنا يسعدكم ويهنيكم ويرزقكم بالذرية الصالحة

أجلس في غرفتي أستقبل زغاريد النسوة والتهاني والدعوات الصالحات بعد عقد القران، نساء الكمبو لم يتوانينْ عن الاحتفاء بي كما يجب، كما تحتم علينا العادات فالعروس لا تخرج من غرفتها ولن تقابل الرجال، فمراسم الزواج ستكون في القريب، شهران ونصف الشهر تقريباً وسأصبح زوجة دكتور عثمان، لم أقابل أبي بعد بين جموع كل المهنئين، بحثت عنه دموعي لتستكمل فروض سعادتها، مرت لحظات التهاني بطيئة وأنا أترقب أبي ودكتور عثمان، كانت سارة تشاطرني الترقب بابتسامة مطمئنة، تربت على

صمتي بزغرودة مفتعلة، طفنا بين الوجوه نبحث عن خالتي عواطف لتعبر بي إلى بر أمان بعناق أبي، ظللننا هكذا صامتتين مترقبتين... وجاء أبي والدموع تكلل وجهه، لثمته حتى زالت جميع مخاوفي، عانقني حتى سكنت رعشتي، سمعتُ صوت الفرح أخيراً، هذا ما كنتُ أحتاجه، عناق طمأنينة من أبي...

في المساء جلستُ مع أبي وحيدة بعد وداع آخر المهنئين، لم ألتقِ بدكتور عثمان، ولم يره أحد بعد عقد القران، سألتُ أبي عنه فقال إنه تلقى اتصالا هاتفيا وخرج متعجلاً، أغلب الظن أنه اتصال من المشفى في القطينة لعملية مستعجلة، فهو اختصاصي الجراحة الأوحد في المشفى، «لا بد أنها عملية جراحية عاجلة»، هكذا قال أبي، ولم يكن هذا القول مبررًا كافيًا ليقنع شكوكي، ظللتُ أعلق تساؤلاتي على مشجب الانتظار إلى حين لقاء...

حيااااة... يا حيااااة... يا حيااااة!

صوت غير مألوف يردد اسمي عبر الظلام، لم نتبين ملامح الصوت ولا مصدره، صاح أبي...

ـــ مرحب حبابكِ، اتفضلي!

تقدم الصوت نحو المنزل بخطوات مسموعة، ظللنا منكبين على خوفنا نلتمس طريقاً للاستبانة، رأيتها، امرأة يبدو من مظهرها أنها من خارج حدود قفار الكمبو، لاحت من على البعد أضواء عربة، ترجل منها دكتور عثمان مسرعًا، دلف إلى الحوش من غير أن يمنحنا فرصة للسؤال

أو التحية قال في خوف:

ـــ الجابك شنو هنا؟

التفتت إليه في غضب وهي تقول:

ـــ خايف من شنو يا عثمان...؟

ـــ يلا أطلعي قدامي أوصلكِ وبعدين نتفاهم...

ـــ لا ما ماشه... أنا جيت هنا عشان افضح عمايلك!

ـــ اسكتي !

ـــ ما بسكت... أنا مرتك وكل الناس لازم تعرف إني مرتك... وعندك بنت كمان، وبتك ما ماتت... بتك أنا جبتها هنا وعند المرة الطيبة دي...

وأشارت بكفها إلى حاجة نفيسة....

ووووووب ووووووووب

سارة! سارة! سارة!

حيااااة... سارة ماتت يا حياة، أختك ماتت، أحي يا بتي، أحي يا أختي، أحي يا صحبتي!

الرحلـــــــة الأولى الموت و(الحياة)

نراها فانية، نودعها الفانية...وننتظر ما بعد الظنون والثقة، أن يفتقدنا أحد، أن يجزل لنا العطاء أحد، نغيب ولن يدعو لنا غير ضمير منكوب، أجزل في صنع أوهامنا...

سأجدني مقرونة بالدعوات، أجلس متفقدة ملامحي وأتنفس ببطء....

أسباب الوفاة كثيرة من بينها وجع الحياة...

لـ«درويش».

الفصل الرابع :

رسالة إلى أبي:

كل يوم يمضي نفقد فيه حياة ننسى أن ندعو به لضريح، لجسد مسجى على حزن، لروح مفارقة...
سنلتقي لا محالة...

سلام

لو كان لي حاضر آخر لامتلكتُ مفاتيح أمسي، ولو كان أمسي معي لامتلكتُ غدي كله...

لـ«درويش».

السبت من خريف يونيو 1991

أبي الحبيب... أحبك جداً

أدركتُ أن كل يوم يمر ندنو فيه من الموت، كل برهة تعصف بما تبقى لنا من أمل وتتركنا مسجين على حلم تشذبه نوايانا، نودع بغير سعادة، نبكي أنفسنا بصمت وحرارة، نُعري حبنا على مرأى ومسمع من الجميع، نحاول أن نجد لنا طريقاً آخر غير الذي ودعنا به أعزاء علينا، ولن نجد... نجدنا مقيدين لواقع مؤسف ونصير أكثر وجعاً...

أبي مصدومة أنا، لم أدر ما يحدث في عالم بات غريباً عني، الجميع تغيّر، سارة صامتة لا تنطق، حياة الصغيرة صامتة، حتى الكمبو مات، لقد تحققت جميع أحلامي، تلك الرؤى التي لازمتني لأشهر خلت، ما زلتُ أحتفظ بالياقوتة الحمراء أنظر اليها كلما تعثرتُ بخوف، هي من تحاور ما تبقى لي من صبر، لم يعد هناك شيء يدعوني للحياة...

ذاك اليوم أسلمتُ فيه عقلي إلى النوم، عقدتُ فيه هُدنة مع طيف سارة ليزورني لمجرد وخزة، لكنه أحسن الغياب، صليتُ يا أبي، التزمتُ بالأوراد ولم يحدث شيء، زرتُ ضريح شيخ تمساح، وذكرته بزيارته لي في ذات حلم ولم يخرج ليكافئني بطمأنينة، احتفظتُ بحفنات من تراب قبره خطتها في قماش وارتديتها تميمة ولم يحدث شيء...كل شيء يا أبي

ظل كما هو، لم يتغير برغم جميع محاولاتي الكثيرة، ظللتُ ملفوفة بحبل في غرفتي يزورني دكتور عثمان كلما حانت وجبة طعام... أبي، سامحني، امنحني سكينة لأتحرر من ذنبك، فالندم يعتصر أنفاسي...أتسمح لي أن أودعك بقبلة...أحبك جدا...

مايو ودعتُ فيه جميع أحلامي... ماتت سارة ولم يتبق لي من حلم أسامره، لم يعد هناك شيء يجبرني على الحياة، اكتملت مراسم التشيع وأمسى الكمبو خالياً من الحياة، كل شيء لم يعد كما كان، أسمعهم يتحدثون أن الحياة مستمرة، وأنني يجب أن أصبر، والحياة ما هي إلا دار امتحان، أسمعهم يهمسون جميعهم، يصرخون، لكني صامتة، لم تعد الوجوه كما كانت، كل شيء تغير، عثمان مات، ابنته حياة ماتت، أبي لم يعد موجوداً، خالتي عواطف هي الوحيدة الباقية على ذكرى أحلامي السابقة، حاج مكي مات، حتى غنيمات حاجة نفيسة توقفت عن ثغائها هي الأخرى، وديكها أصابته صفعة إبليس، كل شيء مات...

لوقت لا أعلم مداه ظللتُ أعدو في الكمبو باحثة عن حياة، زرتُ شجرة اللبخ، جلستُ بها لنهار كامل، صرخت في طلب نور وحسين ولم يُلبِّ ندائي أحد، جبتُ قفار الكمبو وأضرحته ولم ألتمس حياة، تحدثتُ كثيراً لشيخ تمساح لكنه لم يجب على أي من تساؤلاتي، كان ينظر لي في عجز، تجيبني حبات مسبحته المنفرطة على قبره حين يكثر إلحاحي، تحدثتُ مع جيمي خرجنا في وقت غسق صحبة، ولم أجد منه رداً هو الآخر... الجميع ميت، وأنا الوحيدة الباقية على قيد حياة، أي عقاب هو ما نلته! بأي ذنب

تغتالني يد المنون؟! ماذا فعلت؟!

همتُ في دنيا فانية، وودعتها الفانية، لم أعد أسمع، فقد أصابني الصمم، الكمبو صغر بمقدار بؤرة وجع، لزمتُ غرفتي أحدث جدرانها فهي الوحيدة التي أتلقى منها رداً، أظل أصرخ وتجيبني هازئة، أقفز بين المسافات المعتمة في غرفتي لألتقط حبة زوادة من ضريح شيخ تمساح، غرفتي كئيبة حزينة لا أعلم ما حل بها، الشمس تآمرت مع الكمبو وماتت هي الأخرى، القمر لم يعد يلوح لي في منتصف كل شهر، لم أعد أقف أمام المرآة، لم يعد يغريني ذلك، كل شيء فقد طعم الحياة ورائحتها...

لم أبكِ، لم تحتفل الدموع مع أهالي الكمبو، ظلت وفية لأحلام سابقة، كل شيء ليس في مكانه، سقف الغرفة يلامس قدمي، رأسي يلتهم تراب الأرض، أطرافي تمزقت، يداي ليستا في مكانهما، أصابعي تتناقص كلما نظرتُ إليها، صارت لي عين واحدة، وشفة عليا فقط، ومت أنا...

أراني ميتة، أحتفل بموتي معهم، الغائبون بقربي، شيخ تمساح رحل عن الكمبو، أمي، حمزة، كلهم ميتون، والكمبو صار ذكرى، الأوقات تمر ولا أدري أهي وحشة القبر أم غرفتي المنسية في قعر الغياب، ظللتُ أتساءل: ماذا لو صرخت؟ هل سيوقظ صراخي أموات الكمبو؟ هل استيقظ أنا الأخرى وأغادر قبري...؟ ولم تطاوعني حنجرتي على إخراج صوت، ماتت هي الأخرى، الغرفة تهتز تصدر ضجيجاً عالياً، أشباح يتقاتلون أمام الباب، صرخات مدوية تصدر من سماء الكمبو، وصوت ريح مهلك، الرعد يزأر، البرق يلوح لي، نداء من هناك يدعوني للسفر، أمي،

حمزة هناك أسمع همهمتهم، مطر يبلل صبري، أنا حية... آه لم أمت...

أفتح باب الوعد وأخرج لأمي، أنادي بأعلى صمتي، أراها هناك قرب صحن مسجد شيخ تمساح، أهرول بشوقي، لقد وجدتُ من يتنفس في الكمبو أخيرا، كلما دنوت منها كانت تبتعد عني، صرختُ فيها بكل حزني، رأيتُ سارة تقف بين المطر والظلام، ترفع يدها ملوحة، تبتسم ما بين البرق والقمر، أقترب منهم في سعادة ليبتعدوا سائحين، ينادي حمزة، أراه هناك يقترب من المئذنة، يعلو إلى السماء باسماً، أصرخ... أرتعد... أبكي، أحاول اللحاق بهم لكنهم يستمرون في الابتعاد، تبدو المساحة بين ذراعي والسماء قريبة جدا، يبدو كل شيء قريبًا، سارة قريبة مني اندفعتُ ناحيتها فغابت من جديد، تسلقتُ جدار المئذنة لألحق بحمزة فابتعد هو الآخر، لم يتبق لي من أحد غير أمي وهي تجلس هناك ساكنة، خففتُ من وطأة خطواتي واقتربت منها، وتعانقنا، آه الحمد لله، جسد حقيقي أخيراً، صرخت لمدة لا أعلم طولها ونمت على صدرها أتنفس بصعوبة...

تغمرني رائحة الحلو مر تتسلل إلى أنفي، أبتسم في متعة، أتمطى على فراشي بصعوبة، كل جزء في جسدي يؤلمني، أحاول النهوض فأجدني عاجزة تماماً، ألم شديد ينتشر في كل أطرافي، هناك أسفل بطني أشعر بشيء دافئ يسيل من بين فخذي، عيناي تدمع ساهمة، تعلقتُ بسقف الغرفة، لا أملك قدرة على الصراخ، حرارة تنبعث مع أنفاسي، وخزات متتالية تنتاب صدري، حلقي جاف، طعم حموضة يبتلعني، خيوط سوداء تقفز أمام بصري...

أعيد المحاولة مرة أخرى، أصرخ بكل حاجتي فيخرج صوتي أنينا متقطعاً، سمعت صوت جيمي من بعيد، جاء صوته متقطعاً، فكررتُ محاولة أنيني مرات عدة، بحثت عن طوق نجاة من رحلة الموت هذه، لا أدري ما حل بجسدي، ليس هناك من عضو يطيع أوامري، أغمضتُ عيني لأستمد شجاعة خائرة وفشلت، حاولت أن أخمن ما هو الوقت الآن، صباح... مساء، ولم أستطع، هذه الغرفة مغلقة جدا ليست بها نافذة، بحثت بأذني عن مصدر صوت جيمي لأجد الباب وفشلت أيضا، ظللت هكذا لزمن لم أعد أعلم عنه شيئاً.

أغمضتُ بصري على ما تبقى لي من ضوء، وأمعنتُ أذني لحركة خفيفة صوب مكاني، بدأت الحركة تزيد والصوت يتضح، دوي صرير الباب تناهى إلى أذني فارتعد جسدي، ضوء جهور يفتح هوة فسيحة، وأراه يتقدم، هو أبي، دلتني عليه حركة عصاه المألوفة، وبكيتُ بكل خوفي وحيائي، اقترب مني وقد تبدلت ملامحه كثيراً، صار شاحباً جداً، طالت وابيضت لحيته، وليس هناك أثر خضاب عليها، عيناه محمرتان دامعتان، حاولت التحدث ولم أستطع ظل بصري يتابع تحركات أبي في الغرفة، ثم جلس على كرسي بعيد يراقبني ونادى بصوت عالٍ دكتور عثمان...

أستمع لوقع خطوات قادمة صوب سريري، رائحة دكتور عثمان تتسلل إلى رهقي، أحسني أجفل من شيء ما، لا أدري أهتز بقوة، تخرج من بطني أصوات غائرة، شيء دافئ يسيل من بين فخذي، دموع هاربة تقتص من صمتي، يدنو مني دكتور عثمان، يبدو بلا ملامح، يتفحصني بجدية، يهز

وسادتي، يضع كفه على جبيني، ينتقل بكفه على فمي يرسم عليه خطوطاً متعرجة يتفحص صدري، ثم يمسك بمعصمي وهو يراقب ساعة يده، يصدر آهة كئيبة ثم يترك يدي مسجاة على الفراش... تهرول دموعي إليه طلباً في استغاثة ولم تجد رداً كان قد أعطاني ظهره وجلس في مواجهه يتحدث:

ـــ طمني يا دكتور... حياة كيف...؟

ـــ الحمد لله اليوم اتحسنت، ما في أثر لتشنجات...

ـــ يعني ممكن ترجع زي أول...؟

ـــ إن شاء الله يا شيخ الإمام، عمرنا ما ح نفقد الأمل...

ـــ الله يا ربي، شن بدور من الدنيا غير صحة حياة، الله يشفيها ويرجعها أحسن من أول...

ـــ إن شاء الله ح تبقى كويسة، أكثر من الدعوات وكلّو يهون، أمر المؤمن كله لخير...

ـــ طيب ح تصحى متين، لسا مغبية؟

ـــ لسا والله، لكن نسأل الله تصحى قريب...

ـــ والأكل تقعد بالجوع كدا...؟

ـــ أهي قاعدة تتغذى بالدرب، لما تصحى إن شاء الله تقدر تأكل...

ـــ ممكن نجرب نعمل حاجة عشان تأكل؟

ـــ نحاول وإن شاء الله تقدر تاكل.

يقف دكتور عثمان، متفرساً في المسافة بيننا، يرخي تفكيره، ثم يقترب

مني في بطء، يلتقط سبابتي يضغط عليها بقوة، أحاول إصدار صوت ما فأفشل! يشيح بوجهه بعيداً عني في حدة فأصرخ أنينا، يلتفت إلي في جزع ليصرخ بعلو خوفه:

«صحت... حياة صحت».

مدة ليست بالقليلة وأصبحتُ مزاراً لأهل الكمبو، كان الزوار يأتون يلقون علي نظراتهم الحزينة، يواسون أبي، يدعون لي بالشفاء ويضربون كفوفهم في حيرة وينصرفون في صمت... مدة طويلة افتقدتُ فيها خالتي عواطف، حاولتُ السؤال عنها ولم أجد شجاعة تخرج كلماتي، عليلة أنا، لا أعلم ما الذي حدث لي بعد وفاة سارة، لم يحدثني أحد ولم أسأل، ظللتُ أراقب شفاهًا صامتة ودعوات مترددة بالشفاء، دكتور عثمان يزورني كلما أزف وقت وجبة طعام، يجلس بقربي يطعمني في صمت، لا أدري لماذا لا أستعيد صوتي لأتحدث، جسدي لا قدرة لي عليه، كل شيء ظل حبيس الفراش، عجزتُ عن قضاء حاجتي، ساعدتني حاجة نفيسة.

لم أعد أحسب الأيام، تشرق الشمس وتغرب وأظل كما أنا، لا يتغير شيء غير الظلال المنكسرة على نافذة غرفتي، سكنتُ فيها لوقت طويل جداً، لم أكن أرغب في شيء سوى رؤية خالتي عواطف، أحسست أن هذه الحياة تضيق بي كل يوم أكثر، لا صوت يخرج من حنجرتي، جسدي لا يطيعني، فقدتُ كل شيء، لم تعد هناك همزة تصلني بالسعادة أو الحزن، أنا لا أشعر بشيء، الجميع من حولي يتهامسون... يصرخون... يضحكون... يفرحون... يبكون وأنا أراقب في صمت...

مضت الكثير من الصباحات والليالي وأنا مقعدة الحياة، عالمي يظل قابعاً في غرفة، أحيانا تلسعني وخزات في ظهري،خدر في أصابع قدمي، كثيراً أشعر بالعطش ولا أستطيع أن أطلب جرعة حياة، لم يكن هناك من يعلم ماذا أريد، تتفقدني حاجة نفيسة مع طلوع كل شمس وغيابها، تبدل لي ملابسي تقلبني على الفراش، تساعدني على قضاء حاجتي، تمشط شعري، وتبكي صامتة، وأنا بين يديها خاضعة لا قدرة لي على الاعتراض، لم أستطع تفسير شعوري تجاه حاجة نفيسة وعنايتها بي، أهي سعادة... امتنان... حزن... أم غير ذلك؟

تتراءي لي دائماً صورة سارة وهي تبتسم، أذكر حواراتها معي، كلماتها عن دكتور عثمان، أحلامها في الخروج من الكمبو... لم تفارقني ولو لكسر من حلم، ظلت تتردد على كل أوقاتي بانتظام، وغابت خالتي عواطف عني... مر الكثير من الحنين والمرض والشغف والصمت ولا زلتُ ساكنة على فراشي يلفني ثوب أمي، أرسل استغاثات صامتة إلى روحي السجينة، دعوتُ الله كثيراً ولم أتلق رداً، ظل أبي يقرأ عليّ سورة البقرة، يتفل عن يساره ويرقيني بما تيسر له من القرآن، ولم تباغتني الحياةُ بحياةٍ... يئستُ وصمتُ عن الزاد، لم يعد هناك شيء يستحق الحياة على هذه الكمبو، كل شيء تحطم....

حيااااة...حيااااة !

خالتي عواطف أمي الثانية عادت من الغياب، سمعتُ صراخها يتردد صداه من بعيد، صوت باب الغرفة المدوي يستقبل بكاءها، أقبلت

نحوي وقد بدت هزيلة جداً، أخذتني بين ذراعيها وظلت تنتحب شجناً، لم يعاونّي صوتي على مشاركتها ألمها وشوقنا، رفرفت دمعاتي فوق هضبة حزننا، ظل المطر يتساقط مع طقطقة سقف الغرفة، باب الغرفة يصفق بكلتا ضفتيه، أحسستُ أن كل شيء في الغرفة شاركنا عواطفنا المهورة لغياب طال، ظللنا متعانقتين لوقت طويل جداً، اغتسلنا من حزن ظل مخيماً على حواسنا، تشاطرنا دموعاً تبحث عن مصب، وارتوينا حياة، أحسستُ أن كل جزء في جسدي قد بدأت تدب فيه الحياة، كل زفير يخرج يمنحني رعشة حياة، كل انحناءة تسعي بين وجع وفرح، ورميتُ بحصاة أنيني أخيراً، خرج صوتي مقتطعاً مكتوماً، تأتأتُ في البوح، اختنقت حنجرتي، كان الدفع عليها كثيراً، جاهدتُ... حاربتُ... وطلبت استغاثة عصماء، قلتها بعلو خوفي وحزني وترددي وتوبتي:

ـــ أ م ي

بكيتُ بصوت ارتفع صداه ليتردد على قفار الكمبو، انتحبتُ وأطلقتُ عنان صمتي لوقت طويل مضى، مشاعر مختلطة لثمتني، أشياء كثيرة حدثت، أردت أن أعرف ماذا حل بي...؟ ما سر غيبوبتي...؟ لماذا لم أعد أقوى على الحراك...؟ وصرختُ كثيراً، ناديتُ على أمي، قلتُ: سارة، توعدتُ دكتور عثمان بالقصاص، لم أعد أسيطر على كلماتي، كل شيء يخرج باندفاع... استنفدتُ مدخرات صمتي ورقدتُ هامدة أبكي توسلاً، ظلت خالتي عواطف تجلس بقربي بعد أن حقنني دكتور عثمان بإبرة ونِمتُ إلى حين غياب الشمس...

استيقظتُ على رائحة الكعك الناعم والبسكويت، تسللت إلى أنفاسي رائحة الكركدي والقنقليز، أستمع لصوت أبي في الجامع وأطفال الخلوة من خلفة يرددون:

الله أكبر... الله أكبر

لا اله إلا الله

الله أكبر ولله والحمد

الله أكبر كبيرًا

والحمد لله كثيرًا

وسبحان الله بكره وأصيلاً

سكنتُ سارحة في سقف الغرفة، حاولتُ أن أرفع رأسي بتردد فأطاعني بسهولة، ترددتُ أكثر محاولة النهوض من على الفراش فاستجاب جسدي، تحركتُ بشجاعة أكثر ووقفتُ، خطوتُ خطوات متقطعة في أرض الغرفة، درتُ بجسدي دورات متلاحقة، قفزتُ، هرولتُ، صرختُ، فتحتُ النافذة، تفحصتُ الغرفة فوجدتها مرتبة نظيفة، سريران... خزانة ملابس... مكتبة كبيرة في طرف الغرفة، وستائر خضراء اللون، كل شيء يبدو جديداً، فتحتُ خزانة ملابسي وتمعنتُ ملامحي في المرآة... ياه لقد تغيرتُ كثيراً، صرتُ نحيفة جداً، أظنني فقدتُ الكثير من الأرطال، تقصف شعري، جبهتي صارت أكثر بروزاً، عيناي غائرتان، عظام فكي تبرز أكثر، انحسر صدري، تحسستُ نهدي بيد مرتعشة، درتُ على نفسي متفقدة ما تبقى من جسدي، لقد نحلتُ جداً، أصابع قدمي بدت أكثر

ضموراً، وجدتني أرتدي فستاناً أحمر، أساور ذهبية تخنق ذراعي، محبس على بنصر يدي اليسرى، باقي آثار رسومات حناء على كفتي... ذهلتُ... صرخت...كيف حدث هذا؟ من أنا...؟ متى...؟ من...؟

خرجت مهرولة إلى خارج الغرفة، كان حوش بيت حاج مكي، ليس منزلي، ما الذي حدث...؟ تلفتُ بحثتُ تفقدتُ جميع الأمكنة، كل شيء يبدو فارغاً لا أثر لأحد، دلفت إلى الراكوبة وجدتها مرتبة، بصمات امرأة في كل ركن منها، الأواني نظيفة مرصوصة في تناسق على رفوف المطبخ، البخور الحجازي يتصاعد في هدوء، شيال حلوى وكعك ينتظم في جلسته، صينية بها أربعة أكواب شاي وبراد وصحن بسكويت... كل شيء مرتب بعناية فائقة... كان هناك عنقريب في طرف الراكوبة عليه شملة دخان وأسفله حفرة دخان، لا تزال آثار دخان الطلح عليها، شهقتُ في خوف... ما هذا..؟ حلم أم حقيقة...؟

استدرتُ في عجلة، سمعتُ أصوات رجال صوب غرفتي، سكنتُ في الراكوبة أترقب... تقدمهم حاج مكي وأبي، فتح لهم الصالون دكتور عثمان وأشار عليهم بالدخول، طرق باب الغرفة ثلاث مرات وهو ينادي: حياة! حياة! حياة!... ودخل في تردد، خرج مسرعاً وعيناه تمتد بها نظرات حائرة قلقة، وقف أمام باب الصالون يبدو متوتراً، يتحرك يحاول الخروج والدخول، أحسبه خائفًا متوجسًا من شيء ما، لا أعلم ما به، ثم خرج، بعد مدة سمعتُ صوت حاج مكي ينادي على دكتور عثمان، وقف حاج مكي أمام الراكوبة تنحنح معلناً عن قدومه ثم قال:

ـــ حياة... أنتِ هنا...؟

ولم أجبه، ظللتُ أتفحص في كل شيء، ساهمة خائفة، مرتابة...

تقدم ببطء فوجدني أقف مرتاعة خلف المزيرة، بادلني نظرات متفحصة وابتسم في سعادة، قال:

ـــ العيد مبارك عليك، العيد الجاي بوليدك إن شاء الله!

وصمتُ أكثر، استطرد قائلاً:

ـــ عاااارف دا سر ما في زول عارفه، لكن أنا مو زي ابوكي، كلمني عثمان...

رفعتُ إليه خوفي، تنصتُ على حياة ثانية لم أعد أعلم عنها شئياً...

ـــ حياة، أبوكي بدور يبارك ليكي العيد، إلا راجلك دا مشى وين....؟

ـــ رااااجلي....؟

وضحك بتساؤل وهو يبحث بعينيه عن شيء ما في داخل الراكوبة، حمل شيال الحلوى والخبيز وغادر مسرعاً، ظللتُ هكذا أقف بين ماض وحاضر لا أعلم عنهما شيئاً، امتدت يدي آلياً إلى بطني وجدتُ بها انتفاخاً، صعقتُ، تراجعت قدماي إلى الخلف وجلستُ على السرير لا أقوى على شيء، طنين عظيم في أذني، موجات من الخوف تضرب محيطي، الضفة خالية من حياة، شراع يبحث عن مرسى، بحارة خائفون، نهر يستغيث، ومركبي يغرق...

ـــ حياة... العيد مبارك عليكي يا بنتي...

يقف أبي بيني وبينه وجع استفهام، سحب تمطر ورعد يتسربل بالغياب،

تقدم مني، مد يديه من على مسافة يتحسس شوقي فعانقته برجاء، سكنتُ بين أنفاسه مسترخية، صوته يتهدج دمعاً، وصوتي غائر في بئر سحيقة، ظل يشملني بالدعوات، يحمد الله على استردادي لصحتي وعافيتي، ووقفتُ صامتة أتجرع كؤوس أنخاب هواجسي وحيدة، حاولتُ أن أتحدث، أسأل، أستفهم، ولم أستطع، مذهولة خائرة أنتحب، تنامى إلى سمعي صوت دكتور عثمان يتحدث مع حاج مكي، سمعتُ وقع خطواته تقترب، عطره انتشر على جسدي، أنفاسي صارت تتودد له، عاطفة عظيمة تسيطر علي، شوق ربما لم أعد أدري...

ـــ حياة، إنتي كويسة؟!

دكتور عثمان كما لم أره من قبل، يرتعش خوفاً، أفلتني أبي وانسحب يسبق خطواته صوت عصاه الحديدية... دنا مني تفرس ملامحي وعيناه تضيق، تناول كفي اليمنى والعرق يكسو ملامحه، ظلت شفتاه تبحث عن كلمة، قال من بين خوف وشغف :

ـــ قلقتيني عليكِ يا حياة، رحتي وين...؟

ظل يتحدث كثيراً يحكي عن قلقه... خوفه، قادني إلى تلك الغرفة، أغلق الباب بهدوء، بدت الغرفة مظلمة تتحين فرصة لقاء، غمرني بشوقه أبطأ في تقبيلي، امتص جفاف شفاهي وخضبني بأنفاسه، ظلت يده تحفر على أخدود ظهري وتبني أهرامات من آهاته، دفع بكل هواجسي واستطرد تساؤلاتي بمكر رجل يعلم مكامن شهوة امرأة، احتفظتُ بأسئلتي وتهتُ معه، ظل يردد كلمات شوق، يذكر اسمي مراراً، يمنحني قبلات متوترة،

ويبتلع حبيبات العرق من على جيدي، حملني إلى ضفة نهر مسكونة بالرضا، ووجدتُ السباحة معه جد ممتعة، كانت المياه دافئة، النسيم يلاطف نهدي، الماء يندفع مشققاً تجاويف أناتي، المركب تئن... تصرخ... تتأوه، النهر يبدو عميقاً، الظلام حالك والنشوة تزأر، تمرغنا سبحنا تلاطمنا كأمواج هادرة ورسونا على واقع أجمل، ظللتُ بين صدره أسكن عطشى، وظل يعانق مخاوفي ملتاعاً، تمتمتُ برجاء والدموع تعزف آخر ألحان موتزارت، ربت على دموعي بأنامل عازف ماهر، قال في هدوء:

ـــ أنتِ في أمان الآن يا حياة...

لم أعد أعلم ما هو الأمان الذي يتحدث عنه، الكثير من علامات الاستفهام تتخبط في عقلي وبين شفاهي تحتاج إذناً للخروج، أين حياتي الماضية، لا أعلم كيف أصبحت زوجته، ومتى بتُّ حبلى، آخر شيء أذكره هو موت سارة وعناق خالتي عواطف، حديث سابق بينه وأبي عن غيبوبة مزعومة كنتُ أعاني منها، لا بد أن هناك فراغًا سكن ذاكرتي، تشابهت الأيام، ثم قلت في عجلة:

ـــ كم التاريخ اليوم...؟

ـــ الأول من عيد الفطر يا حياة...

قلتُ في تردد:

ـــ هل تزوجنا...؟ أنا لا أذكر أي شيء مما مضى، لا أعلم تفاصيل زواجنا...؟ ماذا حدث...؟ هل كنتُ في غيوبة...؟

وتبدلت ملامحه، دثار من الحزن غطى على شفتيه، بدا جاداً، ضمني إليه

أكثر، وقال:

ـــ نعم يا حياة، لقد تزوجنا لكن بهدوء، كانت الظروف تقتضي ذلك...

وغاب في الصمت، قلتُ له في انزعاج:

ـــ أخبرني عن كل شيء، أرجوك، فأنا في حالة من النجوى لا يعلم مداها إلا الله، كل شيء غريب، مخيف، لم يعد هناك شيء كما كان... أين خالتي عواطف؟

ـــ الخالة عواطف تقضي العيد في كمبو البر الثاني مع أبناء شقيقها، ستأتي في مساء اليوم أو الغد على الأكثر...

وترقبتُ حضور خالتي عواطف، انقضى اليوم الأول من العيد، والمهنئون يفتحون علي الكثير من الأبواب المستفهمة، دونتُ كل تساؤلاتي واحتفظتُ بها في مفكرتي، هي الوحيدة التي وجدتها من عهد سابق، أعطاني إياها دكتور عثمان، قائلاً :

ـــ ستساعدكِ كثيراً هذه المفكرة، اكتبي عليها كل أوجاعكِ

وكتبتُ أول عبارة خطرت على ذهني، مقولة كنتُ أحفظها لدرويش:

«أنا لا أنسى، أنا فقط أترك الأشياء جانباً».

تفقدتُ المفكرة بحذر، وجدتُ بها قصاصات قديمة عن رحلات غريبة، عبارات مبهمة، تفاصيل كثيرة عن أشياء لا أذكرها، وأماكن قمت بالكتابة عنها لم أزرها، أصابتني الكثير من الحيرة، بدأتُ أقرأ في بطء علني أجد إشارات تدلني على ما ضاع مني، استوقفتني مقولة لأنيس منصور كُتبتُ بخط يد غريبة:

«المرأة التي أحببتها ليس لها ماض، فقد وُلِدت يوم أحببتها.. والمرأة التي تزوجتها ليس لها مستقبل فقد ماتت يوم تزوجتها».

ولم تدلني على شيء غير المزيد من الاستفهامات...

نمتُ ليلتي مضطربة ضائعة، زوجي يستلقي على السرير المقابل، ظل لوقت مستقطع بيننا مستيقظاً يحاول أن يجد شرشفاً مناسباً يستر به عري أشواقه لكني رددته بقوة، حاول ملاطفتي فتعمدتُ تمثيل النوم، تركني في يأس وما لبث أن أصدر شخيره ليعم قفار الكمبو، راقبتُ النجوم والدموع تبرق في حلكة ظلام الكمبو، تذكرتُ أحلامي، سارة... خالتي عواطف، كل شيء، وجدتُ أن هناك مساحة مجوفة بين اليوم والأمس، دعوت الله في سري أن يزيل الغشاوة وينير لي بصيرتي لأعلم كل شيء عن حياة...

استيقظتُ على صوت طرقات متتالية، سبقني زوجي لاستقبال زائر متعجل، كانت خالتي عواطف، سمعتُ صوت تحيتها فنهضتُ في سعادة، تصافحنا تعانقنا، جلسنا في الراكوبة يدفئنا المنقد يتصاعد منه بخور اللبان مخلوطاً مع الكمون الأسود والقرض، احتسينا شاي اللبن في صمت، مرت من أمامي الكثير من المشاهد، تذكرتُ أياماً خوالي بصحبة سارة، شاركنا زوجي وحاج مكي، لم نتبادل حديثاً غير كلمات معتادة لا تخلو من مجاملة ولا تنقص عن عادة، استأذن زوجي في الذهاب إلى المدينة لإجراء عمليات مستعجلة، على أن يعود آخر النهار، انضم إلينا أبي مع آخر كوب شاي، بدا صامتاً، لم يقو على الحديث، صحبه حاج

مكي وخرجاً إلى الخلوة معاً... فقط هذا ما أحتاجه وجع عتاب وعقاب ذكرى من خالتي عواطف... لم أنبس ببنت سؤال، بكيتُ بكل إرادتي الحمقاء، لم تشاركني خالتي عواطف عاطفة دمع، ظلت تتفرس في لمدة طويلة، كنتُ أحتاج لعناق أربت به على هواجسي، لكنها ظلت بعيدة ساهمة تفكر، صرختُ فيها بعلو حاجتي:

ـــ أنتِ الأخرى لم تعودي كما كنتِ؟ ما الذي حدث...؟ رأسي يكاد ينفجر، أكاد لا أذكر شيئاً...

وظلت تنظر إلي في تفكير عميق، أصبح صمتها يخنقني فصرختُ أكثر:

ـــ خالتي عواطف... أنا لا أذكر شيئا بعد وفاة سارة، أرجوكِ دليني...؟

وعانقتني، ضمتني إليها في قوة، مسحت على كل أحزاني، استلقيتُ على حجرها حتى ارتخت أطرافي، تنفستُ صعداء راحة، ثم سمعتها تتحدث:

ـــ حياة، أحقاً لا تعلمين ماذا حدث...؟

نهضتُ والشك يعقد حاجبي، قلتُ في ظن:

ـــ أو أعلم يا خالتي...؟

ردت في بطء:

ـ لا أدري

قلتُ في ثقة: حسناً انظري إلي.. أحقاً أعلم...؟؟؟ ألستُ ابنتكِ، ألستِ أمي، يمكنكِ معرفة صدقي من كذبي، وصوبتُ يقيني قبالة بصرها، أشاحت عني بدموع مختنقة وقالت:

ـــ آه يا حياة، لا أدري ماذا أقول، حقاً بتُ لا أعلم إن كنتِ تذكرين أو لا.... حدث الكثير بعد وفاة سارة، وأنتِ لم تعودي كما كنتِ...

قلتُ مشجعة بعد أن بدأتُ ألتمس خيطاً يربطني بأيام سابقة منسية:

ـــ أخبريني أرجوك، لعلي أشفي من دائي...

ـــ لا أعلم، ولكني سأخبركِ.

ما حدث أنه وبعد وفاة سارة، أصبتِ بغيبوبة لأيام طويلة، نحلتِ هرمتِ مما استدعي دخولكِ المشفى، مكثتِ بالمشفى شهورًا، وعدتِ إلى البيت معافاة، حيث تم زواجكِ من دكتور عثمان، كنتِ سعيدة جداً، بعد مرور أسبوع من زواجكِ زارتك طليقته، أفرغت كل ما تملك من إساءات، لم يكن معكِ أحد في المنزل، يقولون إنها قد قامت بضربكِ، لكني أعلم أنها قد سحرتكِ، «عملت ليكي عمل ورمته في بير حاج عبدالله»، غبتِ عن الوعي لزمن طويل، أصبتِ بهلوسات متكررة، خرجتِ من البيت بملابس النوم، الكل في الكمبو صار يتجنبكِ، اعتديتِ على حياة الطفلة، جيمي، وعندما كثرت الشكوى ربطوك بالحبال في غرفتكِ صرتِ تعيشين بين هلوسات وصحو وغيبوبة، وفي رحلة البحث عن العلاج أشار حاج مكي على والدك بالذهاب إلى شيخ عطاالله بالبر الثاني، استمر علاجكِ على يد الشيخ لمدة شهر، وها أنتِ اليوم أمامي تسألين، عن حياة ماضية، لم أعد يا ابنتي أعلم صحوكِ من غيبوبتكِ، كل الأيام سواء، أتمنى أن تكوني قد عدتِ حياة ابنتي التي أعرفها...

لا أدري، لكني ولأول مرة لم أجزع، لعل سرد خالتي عواطف لماض

أزف قد أيقظ حياة القديمة، أحس بسلام داخلي، يقين يخيم على حياتي، حاولتُ أن أتذكر شيئاً مما سردته عليّ خالتي عواطف، ولكني لم أفلح، كل شيء حدث يبدو غائرًا في بئر عميقة ليس لها دلو انتشل به حكايا غائبة في غابة سرية، أي وجع هو هذا! أي خوف هو هذا! لا أستطيع أن أفسر حقيقة شعوري، سكون، خوف، ترقب، أم أنني الآن في إحدى نوبات هلوساتي كما قالت خالتي عواطف، حاولتُ أن أستكشف الحقيقة لوحدي، فتشتُ في كل مقتنياتي عن شيء يدلني على حياة القديمة، خزانة ملابسي مرتبة جداً، بها ثياب وملابس نوم، عطور مختلفة وصندق مجوهرات، أخرجته وأفرغتُ محتوياته واحدا واحدا لا أعلم عن أي شيء أبحث، إنني أبحث وكفى عن شيء ما، عن خيط رفيع يصلني بحياة بين حياتين، ووجدتها ياقوتتي الحمراء، أغلقتُ عليها بكفي وخرجتُ مهرولة إلى الحوش، صحتُ بعلو سعادتي:

ـــ أبووووي، أبووووووي!

رأيتُ حاجة نفيسة تهش غنمها وتقبل في خوف، وقفت في منتصف المسافة بيننا، وقالت:

ـــ مالك يا حياة، الحاصل شنوا يا بنيتي...؟

ـــ ما في شيء عاوزة أبوي انا...

ـــ أجيبي يا بنات أمي، أبوك ضهرية في الخلوة مع الصغار، لعلك نسيتي...

وانتبهتُ للوقت، لاحظتُ نظرات حاجة نفيسة الفاحصة المترددة...

ـــ الظاهر علي شالتني نومة، ونسيت...

ـــ عاد يا بنيتي، ليكي سنة على الحال دا، ربنا يصلح حالك، تنسي وتتذكري.... الوقع فيكِ ربنا يرفعه منك، من يوم جات طليقة الدكتور الفقر وانتِ ما كسبتِ عافية... أعوذ بالله منها، فقرية وش نقر!

وفجأة قفزت إلى ذهني الملايين من الاستفسارات، أحتاج لمعرفة المزيد عن حياة سابقة، وحاجة نفيسة بكل عفويتها أبصرتني على حقائق مغيبة عني، ابتسمتُ في حزن ودعوتها لاحتساء قهوة الضحوية:

حل المساء ولم يحضر بعد زوجي، تناول أبي الغداء معي وحاج مكي، جلسنا ثلاثتنا في الحوش نتبادل أحاديث خادعة، كنت بين كل حين أترقبهم في صمت تقطعه ابتسامات مفتعلة، هناك الكثير من الحماقات تراود خاطري، ولكني صامتة صمت مستغيث، ما أحتاجه هو زوجي فقط، أسئلة كثر هو من يملك الإجابة عليها وحده، ظل أبي وحاج مكي يتبادلان نكاتاً عن أهل الكمبو لم تعد تهمني، كنتُ سارحة في ملكوت آخر، خوف من شيء ما يسيطر عليّ...

ـــ حياة...

ويقطع حاج مكي حبل مخاوفي...

ـــ نعم...

ـــ مالك مكرفسة كدي، فوق السرير، ارقدي سمح اتمددي، لعلكِ ما تشكي من شئ ...؟

ـــ أنا كويسة ما في شي!

ـــ حياة يا بنتي، كويسة إنتِ بالصح...؟

ـــ كويسة يا أبوي، ما عندي شي...

القلق يبدو جلياً على الوجوه المتسائلة قربي، سحابة خوف تمر عليهم، أمطار كثيفة أعملت سيولاً جعلتهم واجمين، بيوت هُدِمت وجثث طفحت برزت على ملامحهم، ظللتُ أنظر إلى كهلين يتبادلان هواجس مترددة، لم أعلم ماذا يجب عليّ أن أفعل، خائفة ضائعة ومتسائلة...

أيقظني هدير عربة زوجي، سبقه عطره في مصافحتنا، بدت الكمبو مظلمة أكثر، تبحث عن رداء أبيض ليهبها حفنة ضوء، كل شيء هادي... زوجي يبدو منهكاً جداً، رمى بثقل تعبه على سريري، وأغمض على أنفاسه بآهات متتالية، عاطفة قوية جعلتني متسمرة أتفرس في رجل يسكن تفاصيل حياتي السابقة، ظل زوجي يئن ويشكو من طول الطريق والقيادة، حدثنا عن اليوم الطويل الذي قضاة بين المرضى والعمليات المتعجلة، ثلاث عمليات زائدة دودية، عملية بواسير، وتجشأ بعد أن تجرع كوب الماء دفعة واحدة، كان يتحدث ما بين سعادة وتعب، ولم أشاركهم بكلمة واحدة، سمعنا صوت أذان العشاء، استأذن أبي وحاج مكي للذهاب إلى المسجد، وبتُّ وحيدة مع زوجي، ظل مستلقياً لمدة طويلة على الفراش قبل أن ينهض يجر مصيري إلى غرفتنا، وغفوتُ على همي...

استيقظتُ على صوت زوجي، كنتُ في غرفتي أرتدي ملابس غير التي بالأمس، قفزتُ مرعوبة:

ـــ من الذي بدّل ملابسي...؟

ـــ أنتِ يا حياة...
وتذكرتُ أنني فعلاً قد بدلتُ ملابسي...
ـــ آه صحيح أذكر، ألم تذهب بالأمس إلى المشفى...؟
ـــ نعم.
ـــ الحمد لله!
ـــ ما بالكِ يا حياة؟
ـــ خفتِ أن تكون الهلوسة قد عادت لي مرة أخرى.
ـــ عن أي هلوسة تتحدثين...؟
وبدا متفاجئاً، تبدلت جميع ملامحه، الخوف... التساؤل... التشتت، كلها فصول من وجوه عدة كست ملامحه، وحمدت الله على هذه الفرصة، يجب عليّ انتهازها، فتشجعتُ أكثر، أزلت ستار صمتي بروية، ثم قلت:
ـــ لقد علمتُ كل شيء، لم يعد هناك ما تخفيه عني غير بعض الأشياء والتي أحتاج الآن الإجابة عنها...
بدت على ملامحه علامات الانزعاج أكثر، حاول الوقوف، لكني تعلقتُ برسغه وقلتُ في رجاء:
ـــ هلا أذنت لي لألبي نداء حلم...؟ أنا متعبة جداً، مرهقة جداً، رأسي تجرفه سيول من الأسئلة الكثيرة وأحتاج إلى أن أهدئ من روعي، أحتاجك أن تجيبني، أن تخبرني الحقيقة المجردة، أرجوك...
تنفس ببطء صعداء صبره، كافأني بإغماضة شوق، منحني صك امتلاك حياة جديدة، قال لي من بين أنفاسه المتسارعة:

ـــ حياة ما بالكِ تتعلقين بماض، أنتِ الآن صحيحة معافاة، لا تشكين من شيء، حياتكِ سعيدة، بين أبيكِ وزوجكِ وتنتظرين طفلاً، ليس هناك ما يدعوك للقلق أو التفكير الكثير، امنحي حياة حياتها، لا تحاولي إحياء بركان همدت ناره، آه يا حبيبتي! من نعم الله علينا أنه منحنا النسيان، فانسي وتناسي ما سقط منكِ... حياة أتعاهدينني على شيء؟

ولم أنبس ببنت بحرف، كنتُ حيرى أقف في وجه عاصفة ثلجية، ليس لي من كهف يدفئني ولا مكان لصدر أحتمي فيه، عارية من ذاكرتي، منتصبة أمام مستقبل مبهم التفاصيل، أحسني بعيدة عن كل شيء، لا يربطني بالكمبو غير وجع حياة، وعدوتُ هاربة من زوجي باحثة عن أبي، لعلني أجد إجابة أسد بها رمق ظمأ تساؤلاتي، أشعرني مسجاة على قفار الكمبو أبحث عن أنفاس ضائعة، كنتُ أستمع لصوت زوجي يأتي من خلفي يطلب مني التوقف، ولم أتوقف إلا أمام خلوة أبي... أبي بهيئته المعتادة يجلس على سجادة الصلاة يردد في أوراده، دلفتُ إلى الخلوة ولحق بي زوجي، قلت بأنفاس متقطعة:

ـــ أبووووي، أنا مالي يا ابوي، بشكي من شنو أنا، صحي جنيت...؟

صمت أبي كثيراً، وظل زوجي معلقاً بيننا في رجاء، ولم يتحدث أبي، لم يردم بئر مخاوفي بل زاد في حفرها، هرولتُ إلى المطبخ، حملتُ السكين، وقفتُ من جديد أمام أبي أرجوه أن يمنحني صك اعتراف بحقيقة ما حدث لي، ولم يستجب، كان زوجي يتحدث... يصرخ... يحاول الاقتراب مني، ظل يردد: «ستعرفين كل شيء... فقط ارمِ هذه السكين لا

تؤذي نفسك»، وصرختُ في غضب، انفجرت كل أهوالي، دفعتُ بكل شيء في طريقي، قلبتُ الخلوة رأساً على عقب، وظل أبي هامداً صامتاً، قطعت المسافة بيننا، طويتُ آخر مخاوفي لم يعد هناك ما يستحق الصمت:

ـــ أبووووي... قسم بالله أقتل نفسي لو ما اتكلمت!

وغاب صوت أبي، وقع مغشياً عليه، صامتا يعد أنفاسه، عندها انقطع آخر حبل رجاء لي...

الفصل الخامس :

رسالة إلى أمـــي :

نحن أكثر وفاءً للحزن، أكثر حباً للحزن، أكبر هماً من الفرح...
أسنلتقي...؟

سلام

ماذا جنينا يا أماه؟ حتى نموت مرتين... !
فمرة نموت في الحياة... ومرة نموت عند الموت

لـ«درويش».

الخميس من خريف يوليو 1992

أمي عواطف...

أحتاج لمعجزة تحدث بيننا، حلمتُ كثيراً يا أمي أن نتشارك حياتنا سوياً، كنتُ أود أن أحكيكِ تفاصيل شوقي حين أرى ابتسامتكِ، أن أهبكِ متعة الوفاء لساعات بيننا بفرح، أن ألثمكِ بإغماضه شوق وأعانقكِ بآهة حلم، كنت أريد أن أختلي بك خلف مقعد وثير في باحة أمنياتي وأسابقكِ كطفلةٍ تسعى لنيل عقاب محبب، وودتُ لو كتبتك شعراً وأفرط في النظم فأجعلكِ سيدة كل النساء، كنت أريد يا أمي أن أفتعل بك المصادفة، أدبر احتيالاتي الصغيرة حين عواسة كسرة، أتوسل لبنصركِ أن يكافئني بلمسة متمنعة مترددة لتكون بصمتكِ زاداً لمقبل أعوام، كنت أريد بفعل الإرادة مني ولكن بالصمت منكِ تكسرت أحلام امرأة لم تبلغ سن الرشد بعد...

وعدتُ مراهقة يا أمي رهنت أحلامها لحياةٍ آفلة، ووداع بتلويحة كف، ودموع تستجير بشهقة حاجة، أكثرتِ من صمتكِ يا أمي، أكثرتِ من غيابكِ يا حبيبتي، كنتُ أحتاج أن أستمع إلى هسيس أشواقكِ، أن تصرخي بعلو عاطفتكِ، أن تمنحيني عاطفة أم رؤوم توارت بين التراب... ولكني سألتمس لكِ عذراً يا أمي...امنحيني عناقاً بسخاء...

سلام

(الوحيييد) صدق واحد على واحد... المرة المطرفة دي مخالفة
الورق المطبق...
الطلاق...
برررري
دا كعب حمدة بعيييد... المرة ماتتت...
الراجل شالوه...
المشكلة...

الضحكة بالفواطر الحمر وانبساطة وطولة عمر... التومات حلفن عليها...

كانت هذه كلمات شيخة زهرة بت عطاالله الوداعية من ريف قبلي، نجلس في بيتها ننتظر رحمة مواساة، أراقبها تتحدث، تهمهم بلغة أخرى، عن يميني حاجة نفيسة وعن يساري تصمت خالتي عواطف، لا أذكر كل شيء، ولعلي لم أعد أتهجس من تساقط حبيبات ذاكرتي، لم يعد يهمني لماذا جئنا إلى هذا البيت الذي يبدو أنه يستضيف الكثير من النساء من صوت الجلبة في الخارج، رياح خريفية بدأت تهب، لا بد أنه قد مر الكثير من الوقت على موت سارة، آخر حادثة أذكرها كانت مع أبي، لا أعلم ماذا حدث بعد ذلك، أحسني مثقلة بالخوف والصمت، فقد مر نهار وليل على جلوسنا في منزل شيخة زهرة كما ينادونها.

جلسنا ثلاثتنا ننتظر غيث شفاء منها، بدأت في إعداد القهوة ببطء، يبدو المكان يتسع للكثير من الأسئلة، برندة مستطيلة من الزنك يتوسطها باب

من الحصير على يمينها عنقريبان ومزيرة، عن يسارها أربع بنابر وبرش، منضدة مستطيلة من طابقين، في الأعلى تجلس أواني القهوة المرصوصة بعناية، وعلى الجزء الأسفل برطمانات متعددة بها أبهره القهوة.

تجلس شيخة زهرة بهيئتها البسيطة، ثوب من البولستر بألوان متداخلة، خمار تربط به رأسها، خصلات بيضاء ناعمة تظهر قرب أذنيها، جميعنا نجلس القرفصاء على البرش، نراقب الشيخة الكهلة وهي تعد القهوة، كانت قد أكلمت قلي البن، وبدأت تدندن بنغمة تنتنة وهي تسحق البن مستعملة الفندق والمدق، لم يكن هناك عطر يميز تلك الجلسة غير قارورة الصندلية التي تجلس بطرف صينية القهوة، أكلمت إعداد القهوة، ثم وبمهارة فائقة وزعت السكر على خمس فناجين مزركشة بالنجوم الذهبية، صبت القهوة برفق، وتعطرت بالصندلية، مدت الصندلية للجميع فدارت تلك القارورة بيننا في هدوء، ظلت تتجشأ شيخة زهرة وحاجة نفيسة، وظللنا نتابعهن أنا وخالتي عواطف بتوتر، تلك الطقوس زادت رغبتي في معرفة ماذا حل بي، هذه الزيارة جاءت باقتراح من حاجة نفيسة...

ـــــ حياة دي عملوا ليها عمل، الفقر وش النقر طليقة الدكتور، ولو ما فكينا العمل دا عمرها ما تطيب ولا تشم عافية.

هي كلماتها التي أقنعت شيخ مكي وخالتي عواطف بها، ظلت طوال الطريق تحكي عن بركات شيخة زهرة، وظللتُ طوال الطريق أستمع صامتة، مضي وقت طويل ولم أشارك الآخرين بكلمة، لم يعد هناك شيء يختلف، لن يحدث صمتي أو حديثي فرقاً، غارقة ومفارقة، أعلم ذلك

جيداً...

ـــ يا لطيف...

صرخت شيخة زهرة وهي تقرأ ودعاتها المتناثرات على صحن الطلس الأفطح الممتلئ بالرمال، ثلاثتنا بدأنا نراقب ما تقوم به باهتمام، حملت السبع ودعات بيدها اليسرى ثم رمتها بخفة على صحن الطلس برماله الذهبية، وأخذت تهز رأسها، تبلع ريقها، ترسم خطوطا بين الودعات، ثم ترفع رأسها تراقب ملامحي في سخرية، وقالت:

ـــ الوحيييد ليكي منو يا السمحة...؟

ردت عليها حاجة نفيسة بخوف :

ـــ رااااجلها؟

ـــ كووويس ما عليه عوجه...

ثم تنفست حاجة نفيسة صعداء وهمية، وظللنا نراقب وخالتي عواطف واجمتين...

ـــ لكن في مرة متعارضة بينكم، الا انتي مو وحيييدة كمان.

وتأهبت حاجة نفيسة وهي تقول:

ـــ عاوزة شنو الفقر دي طليقة الدكتور، حياة الهدية الرضية وحيييدة، وامها ماتت... خلتها صغيرة.

ولم أبكِ، لم أستغث، كأن هذا الحوار الأسطوري لا يعنيني بشيء، ثم رفعت يدها مرة أخرى ورمت ودعاتها...

ـــ الورق المطبق دا متحمدك يا السمحة، جاكِ من الراجل دا، سيد

الوظيفة، اب حقيبة... هيبي السايق العربية.

واندفعت حاجة نفيسة قائلة:

ـــ ياهو رااااجلها الدكتور.

وسرحتُ مع كلماتها، أتكون المفكرة هي ما تقصد هذه الشيخة؟

ـــ رااااجلك رااايدك يا السمحة، إلا بس المرة المفارقها واقفة بينكم.

ـــ شن نسوي عاد يا الشيخة؟

ـــ فكووها، العمل دا يتفكا حتى تبقا كويسة.

ثم رفعت يدها مرة ثالثة ورمت ودعاتها، انتظرت طويلاُ وقالت:

ـــ الفكي بأمامة خاتي الملامة واقف ليكي، بتمشي لشيخ يا السمحة؟

أسرعت حاجة نفيسة في القول:

ـــ منو دا، عاد أظنه العنده العلاج !

ـــ آي حمدة شرق، قرروريب مننا هنا، وحاتك يا السمحة تمشي للشيخ تلقي عافيتكِ

ورمت ودعاتها مرة رابعة...

ـــ الضحكة بالفواطر الحمر وانبساطة وطولة عمر... التومات حلفن عليها... متحمداكِ يا السمحة.

ـــ أها تاني ودعي ما بختوا... علاجكِ عند الشيخ في شرق.

ثم قمنا في بطء نجر تجويفاً نحتُ للتو، ظللتُ وخالتي عواطف نقف في وسط الحوش ننتظر حاجة نفيسة لتخرج...

طوال الطريق ظلت حاجة نفيسة تتحدث، قالت إن الشيخة أسرتها أن

علاجي عند شيخ ود فضل، وأننا يجب أن نشد الرحال إلى فريق ورا وهو يبعد مسافة نهار كامل بالعربة من الكمبو...

عدنا إلى الكمبو، إلى بيتي إلى زوجي وخوفي، ظلت حاجة نفيسة تمنحني الدعوات وتزايد في خوفها من مجهول طليقة زوجي، كان صمت خالتي عواطف يؤرجحني بين طمأنينة ورهبة، حاولت حاجة نفيسة أن تفتح كوة للحديث معنا لكنا كنا غافلتين عن كل شيء، كنتُ بين برهة وأخرى أحدق في ملامح خالتي عواطف علني أقرأ تعقيباً ما، أو ربما قبول أي شيء يصوغ تفسيراً عن شعورها لما قالته الشيخة زهرة، ولم أفلح في شيء، حاولتُ أن أطوي مسافة الصمت بيننا، دنوتُ منها تعمدتُ الاحتكاك بصمتها، أرخيتُ وجعي على صدرها فعانقتني متأوهة ولم تنطق بمثقال كلمة، استسلمتُ لصمتها وحمدتُ الله على حضنها الذي لم يملني...

كان زوجي في استقبالنا ويبدو عليه القلق، صوت عربة عمو عبدالله هي ما أيقظت غفلة زوجي، سعى بين خوف وواجب التحية إلى لقائنا وتحية عمو عبدالله، كنتُ أراقب حركاتهم أتلصص على حديث نجوى بينهم بعد أن انضمت إليهم حاجة نفيسة، سبقتهم مع خالتي عواطف إلى الراكوبة، جلسنا نتكئ من رهق مسافة وفكرة، كان أبي ينام قرير العين تصدر شفتاه شخيراً طفيفاً، جلستُ بقربه أنصت لصوت حميم فقدته لوقت طويل، حركة أصابعي على باطن قدم أبي أحدثت راحة في نفسي، نسيتُ كل شيء وظللتُ أستعيد ذاكرتي الطفولية، أنا وحمزة ونحن نمارس هذا الطقس المحبب إلينا، ليستيقظ أبي وننال عقاباً يليق بشقاوتنا، ياه أيام

جميلة، همهمتُ بصوت خفيض....

ـــ حياة...

زوجي يقف على مسافة شهقة، انحنى بطول قامته عليّ طالباً مني في هدوء أن نذهب إلى غرفتنا، لم أعره اهتمامًا، رمقته بنظرة لا مبالاة وجعلت التصاقي بأبي يزيد أكثر، ظل واقفاً يراقبني وعلامات التوتر تبدو عليه، سمعتُ صوت خالتي عواطف يخرج متحشرجاً وهي تطلب منه أن يناولها كوب ماء، تردد في حركته كثيراً قبل أن يلبي طلبها ويستمر في مراقبتي، لا أدري ماذا حل بالجميع، تبدو ملامح الخوف والتوجس تكسو وجوهم المحتارة، تعمدتُ مواصلة ما بدأته تحت ظل تشكك من أقرب الناس إلي...

استيقظ أبي، جلس على مهل في منتصف العنقريب لا يبدي أي علامة تدل على ضيقه أو رضائه، وكعادته بدأ يردد: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»، وكعادتي رددتُ من خلفه: «الحمد لله رب العالمين»، وصمت الجميع، ابتسم أبي في وجهي كأنما يراني، مد يده إلى جبيني متفقداً حتى أنه رسم كل ملامحي، ثم قال في سعادة:

ـــ الحمد لله...بنيتي حياة تنعم بالسعادة!

وتذكرتُ شيئاً كان حبيس قلقي، رفعت دموعي في ابتهال، قلت في ندم:

ـــ أعفي لي يا أبوي!

وعانقني بكل طمأنينة، ردد في أذني: «عافي منك لله والرسول»...

لم يكن هناك من أحد في الدنيا يستحق أن يشاركني نشوة مغفرة من أبي،

هذه اللحظة لي أنا فقط وأبي وحلم كان بيننا تشاركنا فيه أمي وأخي حمزة وسارة صديقتي... والتفتُ إلى موطئ جلوس خالتي عواطف، وجدتها تحيطنا بابتسامتها، بادلتها شوقي فسكنت هواجسي.

كنتُ قد غفلتُ تماماً عن زوجي لكنه لم يغفل عني، قال في توتر:

ـــ حياة... أنا ما قلت ليكي عاوز أتكلم معاكي؟!

ولم أستجب، تنكرتُ لكل شيء، ولم يصمت وكررها مرة ثانية وثالثة وحتى رابعة،ولكني لم أستجب، ونفد صبره... قطع المسافة بيننا ثم صرخ في وجه لامبالاتي:

ـــ إنتي ما سامعة ولا شنو؟!

تدخلت خالتي عواطف طالبة أن يمنحني وجبة شوق مع والدي، لكنه لم يستجب، ظل يحفر في صبري بئراً من الرعب، صرخ بوجه صاخب خائف آمر:

ـــ إنتي ما قادرة تفهمي إنك حامل وفي شهور صعبة، البوديكِ تسافري شنو لشيخة ولا زفت؟

ولم أشاركه في قلقه بشيء، تجولتُ ببصري بين الوجوه الثلاثة، مسحتُ على بطني بجفاف، وانتظرتُ فرجاً من السماء ليجعل هذا الرجل يكف عن صراخه ولكنه لم يصمت:

ـــ ياخ إنتي لمتين ح تفهمي، صابرين، متحملين كل شيء، اقعدي باري لي الشيوخ والوداعيات والكلام الفارغ دا.

ولم أعرف من الذي يتحدث، حقيقة إنني لا أذكر شيئاً، ولم أكن أعلم أنه

لا يعلم، كل رحلتنا حدثت بسرعة...

ـــ يا دكتور... معذور أنت يا ولدي تخاف على مرتك، لكن يعني ما اظن هي تقصد، فهمها اشرح ليها إلا ما تعاقبها!

وتألمتُ أكثر عندما سمعتُ أبي يتحدث بنبرة هزيلة، وبتُ أتقلب على جمر صمت من البئر التي حفرها زوجي بكلماته.

ـــ يا دكتور عثمان يا وليدي، والله مرتك ما عارفة، أنا ذاتي ما كنت عارفة إننا ماشين لشيخة ودع، دا كلالله من تدبير حاجة نفيسة، والله الخلعة الدخلتنا من الصباح لعشية ما تمرق.

لم يستمع، بل ظل يصرخ بكلمات كثيرة، كان يقول:

ـــ تستأذني، تكلمني، ما في حاجة اسمها ما عارفة، بعدين طليقة شنو وعمل شنو، كمان ماشين تعملوا عمل لهنادي...

ـــ هناااادي!

وفاضت بئر صبري، قلتُ في صعوبة:

ـــ أنت منو؟ أنا ما بعرفك...

وخرجتُ من البيت أعدو إلى غير هدى...

شجرة اللبخ موطن سعادتي القديمة، صارت لي مأوى بعد ما أُغلِقت أمام وجهي كل منافذ الصبر، وجدتني ساذجة لا أدري ماذا حدث للجميع، بتُ لا أتعرف على صالحهم من طالحهم، وجهتي غير معلومة، أسير في طريق مظلم شديد الوعورة، الكوابيس تقف خلف كل نية استسلام في النوم، لذا صرتُ أفتح عيني برغم نعاسي، أشعرني أحتاج لخلوة عناق

مع سارة، أو ربما أمي، لم أعد أدري، كل شيء تغير، الجميع صار يرمقني بنظرات مشتتة، لم يطاوعني صوتي على الاعتراض، ولم أستطع غير ابتلاع أفيون صفق النبق الوفي، نهار ومغيب شمس وأنا أتكئ على غفلتي، رأيتهم أهل الكمبو يتحاشون النظر إلي، يمضون في حال سبيل نميمتهم، زوجي وحاج مكي يصرخان بعلو خوفهما من الفضيحة، أبي يبكي متحسرا على مسافة خوف وصمت، خالتي عواطف تعانق صمتي بتعويذة من القرآن الكريم، لم أكن أستطيع تبين ملامح الجميع، هناك غشاوة تحيط بهم أو ربما غشاوة تغلق منافذ رؤيتي، وجدتني بين أمي الميتة وأمي عواطف أرتجف هزيمة، وغفوت... نمت في بئر سحيقة، لعقتُ كل ما لحق بي من ظلم... صرختُ في وجه الجميع، وتصالحتُ مع الكل، كل شيء لا يبدو جيداً....

ـــ حيااااة!

رحلتي الثانية كانت إلى شيخ فضل، هذه المرة صحبنا شيخ مكي بموفور صحته، لا أذكر كل شيء، فعلي الغالب نمتُ كثيراً واستيقظتُ أكثر، فلم أعد أفرق بين الأوقات والأمكنة، ولم يهمني ذلك في شيء... سمعتهم يقولون:

ـــ حياة دي بالصح معمول ليها عمل البتسوي فيه دا ما شغل نصاح، العمل الا يطلع، شيخ فضل عنده خدام وسره باتع.

وقرروا في شأني ووافقتُ طائعة، لم يكن هناك شيء يربطني بالحياة غير الحركة الطفيفة في بطني التي بدأت تسعد مساءاتي، طفلي يصافحني في الصباح برفسة، يوقظني في المساء بقبلة، ويستلقي عند النهار هادئاً، وعاد

إلي شيء من الأمل، ببصيص حياة، نشوة من أمر كان يبدو مستحيلاً، وأعلنتُ سعادتي صامتة، لم أعد أصرخ أو أشكو أو أسأل عن حياة ماضية لا أعلم عنها شيئا، حياتي بدأت مع طفلي، هو الآن في أحشائي يتغذى من أملي وأسعد من نبضه.

طوال طريقنا إلى شيخ فضل كان طفلي يفتح حديثاً بيننا، لعله شعر بالضيق من جلوسي في العربة لمدة طويلة، بقربي كالعادة خالتي عواطف تعانق صمتي، وعلى المقعد الأمامي تلوح من أمام المرآة الجانبية عمة حاج مكي، حاجة نفيسة تجلس ملتصقة بخالتي عواطف وتثرثر كعادتها...

ـــ عاد الدكتور اشتر بالصح، دحين طليقته دي سوت له هو الآخر عمل، اتنفض فيني جنس نفضة يومتا الا مرقني منه عبدالله، هيييا عاد شغل بنات الخرتووووم دا ما بنقدر عليه.

حاجة نفيسة تهمس لخالتي عواطف، فتبادلها بهزة من رأسها ثم تواصل:

ـــ اليوم نقطع الشك باليقين، زهرة يا يما زهرة السرور، قالت شيخ فضل بفك العمل، يبقا صحي بفك العمل.

ثم تعاود تنهيدة حارة، ليلتفت إليها شيخ مكي ويطوف ببصره بين ثلاثتنا، لتهتف حاجة نفيسة في سعادة قائلة:

ـــ الحمد لله يا شيخ مكي، لو ما انت ترا اليوم ما كنا قدرنا نجي للشيخ، الله يساعد وينفك عمل المسكينة دي.

وتشير بإصبعها علي، ظلت هكذا طوال الطريق تحكي عن سوء طالعي وتكيل الشتائم لهنادي طليقة زوجي، رددت اسمها كثيراً لدرجة أشعرتني

بالكراهية والاشمئزاز، تململتُ في جلستي، أسررتُ إلى خالتي عواطف أنني بحاجة إلى قضاء حاجتي، دعتني للصبر وأننا قد شارفنا على الوصول، لم أكن بحاجة لشيء أكثر من الهروب من ثرثرة حاجة نفيسة، ولم أستطع أن أنطق بما يؤلمني...

أخيراً وصلنا إلى منزل الشيخ، بيت من الجالوص بباب منخفض، ليس له من نافذة تطل على الشارع، جميع الأبواب مغلقة، قابلنا رجل يرتدي جلابية حافي القدمين، رحب بنا لتأتي امرأة شابة تستقبلنا في غرفة تقع على طرف المنزل، لنجد أن الغرفة بها عدد من النسوة، درتُ بينهم أبحث عن شيء لا أدري ما هو، كل منهن تقريباً تمارس في فعل شيء ما، رأيتُ منهنْ من تبكي مستغيثة، وأخرى تحاول النهوض وتمنعها من تجلس قربها، جميعهن في عوالم مختلفة، أحسستُ أنني الوحيدة الأعقل بينهن.

امتدت يدي آليا إلى بطني، تحسستُ ابني، كان يسكن في صمت،لم يبد أي حركة، ارتعبتُ... رجوته في صوت هامس أن يوقظني من هذا الكابوس واستجاب لندائي، أصدر حركة قوية انتفضت على إثرها لأخرج من تلك الغرفة، لحقتني خالتي عواطف وكانت الأسرع حاجة نفيسة لتصدر نداءً عالياً:

ـــ الشيخ دا وين يا ناس؟ البنية دي ما بتقدر تصبر... دخلوها!

وأدخلوني...

رجل أصلع يجلس القرفصاء على سجادة الصلاة، أمامه وعاء من الحديد ممتلئ عن آخره بالماء، شيخ مكي وحاجة نفيسة وخالتي عواطف يجلسون

خلفي مباشرة، وأنا أقبع في مواجهة وعاء ماء ورجل تصدر منه تمتمات غير مفهومة، ظل يقرأ ونظره معلق على الوعاء بعد أن أمرني بوضع كلتا يدي من فوق الماء حتى أغطيه، واستمررتُ على هذا الحال مدة حتى غافلني فيها النعاس وتململ طفلي، لم أحس بصوت يصدر ممن يجلس في الغرفة، صمت مهيب عم تلك البقعة من الأرض، كل شيء يبدو متأرجحاً في صورته، هذه الغرفة تذكرني بخلوة أبي، مظلمة لا أثر فيها لضوء ينفذ غير الرتينة المضيئة في عز النهار، رائحة ند تتخلل المنافذ وترسم مع الرتينة خيوطا وهمية عن حروب دائرة وأشباح يقفون على ناصية المكان، أحسستُ ببرودة تتخلل مفاصلي، يداي تشكو من خدر، تورمت قدمي اليمني، طفلي يكثر من اعتراضه فتأوهتُ بصوت عالٍ، قطع صمت تلك الجلسة، ثم تحدث الرجل الأصلع:

ـــ بسم الله يا شافي يا كافي يا معافي، أمان أمان أمان... ارفعي ايديكي!

ورفعتُ خوفي في عجلة، وماذا رأيت... شيء ما لم يعد كما كان، كان وعاء الماء يمتلئ بأشياء أخرى غير الماء، قش... ريش طائر لم أتعرف عليه... قطعة قماش من قميص كان لسارة صديقتي... شعر آدمي... حبيبات من البن... وكيس بلاستيكي به تراب، ولم أفهم شيئا...

ظل الرجل الأصلع يفرز في بطء وهدوء كل محتويات الكورية، وتعاونه حاجة نفيسة معددة كل شيء إلى موطنه، أما عن قطعة القماش التي تعود لسارة فلم تستطع أن تبرر وجودها في الوعاء، ولم تشارك خالتي عواطف بكلمة غير دموعها، ولم أستوعب شيئا مما يدور من حولي، ولم يستطع أن

يفسر لي أحد ما يخصني في كل هذا....

ـــ مع السلامة... مع السلامة !

ودع الرجل الأصلع طيفًا لا نراه بعد أن لوح له بيده اليمنى، كما استقبل ذات الطيف بتحية.

ـــ أها يا الشيخ العلاج أهم شيء

حاجة نفيسة لا تألو جهداً في النصح وتوجيه الأسئلة، فهي الوحيدة التي استطاعت أن تكسر حاجز الصمت والخوف بيننا، تأملها الرجل مبتسماً ثم بدأ يلف قراطيس من أوراق كانت في علبه حديد مستطيلة، تعمد حسابها بصوت عالٍ وكان عددها سبعة قراطيس، تناولتها منه حاجة نفيسة وهي تسأل في شغف :

ـــ أها بعد المغرب ولا كيف؟

ـــ مرة واااحدة، وقت ما تصحي، تبليهم ليها في الموية، كل يوم ورقة تشربها...

وخرجنا على علم ودراية، طوال الطريق ظلت خالتي عواطف تمسح ما تساقط منها من دموع، تعانق صمتي بحزنها وأعانق طفلي بينها وسارة صديقتي... كان أبي في انتظارنا في المنزل، زوجي سافر إلى المدينة كما قال حاج مكي سمعته يقول:

ـــ أتعبني عثمان، شفقان في شنو ما بعرف، كذبة بيضا قلت ليه خالتك عندها وصية ليك، اهو اليقعد ليه يوم عشان نقدر نعالج البنية دي.

جلس بيننا أبي صامتاً مهموماً يبحث عن كلمات يواري بها سوأة صمته

ولم يجد، تمتم كثيراً وسعل أكثر، غادرنا بعد أن أسر لخالتي عواطف بشيء ما، لم أعلم ما هو، لكن تلك الليلة باتت معي خالتي عواطف وكانت من أسعد ليالي حياتي....

كبرت بطني لا أعلم بالضبط في أي شهر أنا، لكن شكلي قد بدأ يتغير أكثر، زاد وزني، وتورمت قدماي، قلت قدرتي على الحركة، ولم أعد أستطيع الاستلقاء على ظهري كما كنت، صار النوم أكثر صعوبة، خالتي عواطف لا تفارقني، زوجي يراقبني، يشرف على تناولي للحبوب كل يوم، أبي يقضي المساء معنا، وحاج مكي وحاجة نفيسة يرخيان سدول الليل بنميمة بينهما لا ثالث فيها...

رحلتي الثالثة كانت إلى ضريح شيخ تمساح، لأنال بركة الولادة بسلامة وطمأنينة كما أشارت حاجة نفيسة، كل الأيام سواسية؛ ليس هناك من اختلاف بينها سوى مغيب الشمس وشروقها، وزيادة حركة طفلي في أحشائي، كان مساءً مثله كمثل بقية مساءات الكمبو، جاءتنا حاجة نفيسة وهي تحمل كورية مغطاة بطبق من السعف الملون، قالت إنه بليلة وبلح زوادة الزيارة لضريح شيخ تمساح، أمرتني أن أرتدي قفازات وجوارب وألف جسدي جيدا بالعباءة، وأن أرتدي خمارا كبيرة ليخفي بطني حتى لا أصاب بالعين، لم أحفل بما قالت كثيرا، ولم أجد هناك شيئا يخجل لأخفيه، هكذا رأيتُ جسدي حينما وقفتُ أمام المرآة، بل على العكس كنتُ سعيدة جداً للانتفاخ الذي اعتلاني فقد صار طفلي يكبر كثيرا، استطعت بكل سهولة أن أتبين ذراعيه ورأسه، ساعدتني خالتي عواطف على ذلك عند

الكشف الطبي الدوري في مشفى المدينة، ولكني أمام تزمر حاجة نفيسة فعلتُ ما أوصتني به.

قطعنا المسافة إلى الضريح تتقدمنا حاجة نفيسة، خالتي عواطف تسير بمحاذاتي، كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بحنين كهذا إلى الصغار وهم يلعبون، وقفتُ مدة لا بأس بها أنظر مبتهجة وألمس بطني بشغف محدثة طفلي عن دنيا لم يخرج إليها بعد... لمحتُ والدي يجلس على البرش وسط حلقة من طلاب الخلوة، كل واحد منهم يمسك بين يديه لوحاً مستطيلاً من الخشب ويقرأون في تناغم بأصوات بعثرتها المسافة بيننا بفعل الرياح، التفتت إلينا حاجة نفيسة وهي تهمس:

ـــ حياة يا بنيتي... ان شاء الله تكوني متوضية، المزار دا عاد بدور الطهارة.

أجابتها خالتي عواطف بهزة إيجاب من رأسها، ودلفنا إلى الضريح، غرفة مظلمة بها قبر مستطيل تبدو عليه آثار مياه حديثة على صدره الترابي، يحيط بجوانبه الأربع سور من الحديد الأخضر، وتتدلى من سقفه قصاصات أوراق صغيرة معلقة بحبال من البلاستيك، مهيب في صمته ومرعب في ظلمته، أول ما وطئت قدمي باب الضريح أصابتني قشعريرة تراجعتُ على إثرها خطوة إلى الخلف، وتسمرتُ في مكاني، لاح لي شريط أحلام سابقة مع شيخ تمساح، ترددت كلماته على أذني وهو يقول:

(السر في الحجر... السر في الحجر).

عاصفة هوجاء أحكمت رمالها على صمتي، ورأيتُ شيخ تمساح يمد

يديه من قبره يناولني الياقوتة الحمراء، كل شيء مر بسرعة اللحظ، القبر تحرك... النيران أضاءت... اشتعلت في كل مكان، وهربتُ مذعورة، إلى أين لا أدري...

كل شيء كان يعدو خلفي، الأشجار... البيوت... الحيوانات... حتى دواب الأرض لحقتني بحفيفها، طنين عظيم يضرب أذني، رعد ثم برق وصرخات تعم قفار الكمبو النائية، كنتُ أعدو ولا أبحث عن سبيل، أهرب من كل شيء وإلى كل شيء، لم أجد من يعانق اشتعال النار أسفل بطني، صرختُ بأعلى ألمي ورغبتي في الحياة، ركلات متتالية من طفلي، حاولتُ أن أستمع لما يريد قوله، لكنه ظل يرفس وظللتُ أركض في حركة دؤوبة، أصوات مبعثرة أسمعها تلاحقني من هنا وهناك، رياح هوجاء تدفع بي إلى مفترق طرق، شيء كبير يعترض طريقي، صخرة تقف متصلبة بيني وبين زئير يأتي من بعيد، تسلقتُ الصخرة في خوف، ووقفتُ عليها أنادي على أمي وحمزة وسارة، دارت بي الرياح أسلمتني لمصير مجهول، صرخت أنفاس الروح، تنكرتُ للحياة، سادت أضرحة العزاء وصوت شيخ تمساح يتردد في القفار

(حيااااة... السر في الحجر... السر في الحجر).

وتهتُ عن دنيا فانية، ليس هناك شيء يستحق الحياة....

أشعر بطعنات متتالية على ظهري، التواء يتسرب بين أنفاسي ودموعي، ورأيتها على ضوء كشافة عربة زوجي، دماء حارة تسيل بين أردافي، ألم يبتر أحشائي، سكين تقتص من روحي، مخالب تمزق جسدي، عاصفة هوجاء

تزمجر في قلبي، آهٍ، أتلوى... أستغيث... أبكي... أهمد... يجف حلقي... يغور صوتي... يعمي بصري وتخدر قدماي، فريسة أنا، الحمى تتسرب في رويداً رويداً، أصرخ يا رب، طفلي يخرج قبل أوانه، جمر بين فخذي يحرق كل شيء في طريقه، غابة محترقة، أرض بكر قاحلة، محصول ميت، وحصاد من عدم...

سمعتُ صراخات متتالية، أصوات تستغيث:

ـــ لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، حياة خافت من نور الرتينة!

ـــ لالالا ضربتها وجرت.

ـــ يا ناس هووووي زحوا منها ادوها الهوا اتتنفس!

ـــ يا حليلك يا حياة... الجاك يا يما من بيت عدوة لا صلي على النبي لا خاف من الله.

ـــ وينوا راجلها، أبوها، عواطف وينها؟

وانتهى كل شيء في كسر من الخوف، ورهق من الدمع، وفقدتُ طفلي، فقدتُ روح طفلي... ابني، بعد أن بنيتُ بيننا أحلاماً لحياة قادمة، فقدتُ روحاً كان يمكنها أن تمنحني دافعا للحياة، فقدتُ ما تبقى لي من أمل، وصرتُ خاضعة لعقاب عظيم، كل شيء كان يدور من حولي كعاصفة رملية، رأيتهم يخرجون من أحشائي قطعة لحم، شاهدت الممرضة وهي تلفها بقماش أبيض، يحملها زوجي ويغادر، لم يحدثني أحد عن طفلي أهو ذكر أم أنثى، وغبت عن الدنيا بالكثير من الألم.

لا أعلم بالضبط كم هي المدة التي قضيتها في المشفى، كثير من الصباحات

ومساءات قليلة، غرفتي بالمشفى ظلت تستقبل أهالي الكمبو، ألمح بعضهم وأنا بين أدوية تغيبني عن الحياة وواقع مهزوم، سارة زارتني كثيراً، جلسنا كما في سابق عهدنا، تفقدنا رسماً قديماً من أحلام مؤجلة، حمزة ظل بقربي يمنحني تهويدة النوم، أمي تعانقني في كل ليلة إلى أن يهمد ألمي ويخبو توتري، ولم أر من بين الزائرين حاجة نفيسة ولو على بصيص صدفة، لكني أذكر أياما كانت تزورني بها حياة الصغيرة وهي تردد كلماتها: «الدكتور عنده طفل»، ولم أعلم عن أي طفل تتحدث، طفلي الذي فقدته أم طفلته من طليقته، أم تقصد ذاتها، ظلت زيارات حياة الصغيرة تثير تساؤلاتي، كان هناك شيء في كلماتها لم تتحقق نبوءته بعد، حاولتُ أن أستفسر من خالتي عواطف لكن شيئا ما ألجم لساني عن النطق، وتذكرتُ ألمي عندما مزقوا طفلي من أحشائي وأخرجوه، أذكره جيداً الآن طفل ملفوف بالأبيض يحمله زوجي، أهي نبوءة حلم قديم؟ يا إلهي إنه كحمزة، وأسميته حمزة...

أبي ظل بالمشفى مع خالتي عواطف ولم يفارقنا، كان يزورني زوجي مع كل شروق شمس وغروبها يبتسم متردداً ثم يغادر مترقباً، تعمدتُ أن أتجاهل معرفتي به،كان يحاول أن يتحدث معي وكنتُ أزجره بخوف، مثلتُ عليه وعلى الجميع وأتقنتُ الدور، أنكرتُ كل شيء بيننا واخترتُ أن أعود لحياة ماضية قبل أن أفقد سعادتي، كل شيء يربطني بزوجي لا أعلم عنه شيئاً، لم يعد يغريني شيء إلى معرفته أكثر، فقد انكسر شيء ما، بئر تهدمت بيننا، وطفل أحببته اختار أن يلتقي بخاله حمزة، مشيئة إلهية أن يرحمني من كل شيء ظل معلقاً على مشجب انتظار توضيح من الجميع

أو رحمة مواساة من ذاكرة قررت حذف كل ما يستهلكها، وعدتُ حياة بطوع اختياري وسعادتي....

ظلت خالتي عواطف تمنحني قوتها وتربت على آلامي باهتمامها، لم أشك لها من شيء وكذا لم تنصت لصمتي، اهتمت بكل شيء يخصني وردمت بئراً صامتة بيننا، منحتني حنانها وحبها وخوفها وشفقتها فلم تفارقني لبرهة من التساؤل، ظلت بقربي كأم رؤوم إلى أن عدنا إلى الكمبو، إلى منزلي القديم...

منزلي ظل كما هو لم يتغير به شيء، كما هو بدفئه وصمته، كان الغبار قد زين كل مقتنياتي، غرفتي ما زالت تحتفظ لي بالود، مكان جلوس سارة يبدو هادئا، صوت حياة الصغيرة يصفر مع ريح القفار، غُنيات حاجة نفيسة صامتة لا تثغو، حمارنا يرقد هزيلاً عند مدخل البيت، لا أثر لجيمي ولا الديك، حتى القطة لا رائحة لروثها، كان هناك شيء ناقص لم يعد كما كان، تجولتُ بين خلوة أبي ووجدتها تشكو وحدتها؛ الإبريق مكسور يسقي عطش الأرض، مسبحة أبي منفرطة الحبات مشتتة على سجادة الصلاة، رماد بخور الند ينتشر على النافذة، ولجتُ إلى الراكوبة... تبدو شاحبة، كل شيء يكسوه حزن جبار، حتى الزير يصدر صوت شهقات متتالية، كل شيء ليس في مكانه الصحيح، بيتنا حزين، بيتنا في حداد.

صرخت بكل جزعي، رفعتُ توسلي إلي ربي، طلبتُ منه أن يرحمني بطمأنينة حياة، وتذكرت أشياء كثيرة، جرم عظيم في حق أبي، حادثة السكين فصرخت لمرات عدة علني احتوي جزءاً من خوفي، ولم أستطع

احتواء شوقي لطلب مغفرة من أبي، خرجتُ إلى خلوة المسجد أعدو، ارتميتُ في حضن أبي طالبة صفحًا وغفرانًا، ونلتُ ما وددتُ... ضمتني خالتي عواطف بحبها وهيأت لي متكأ من الطمأنينة ببيتها... ووجدتُ أمي، نمتُ قريرة عين لا أشكو من شيء.

لم أعلم كم مضت من النهارات والليالي، سعيدة أنا فقط، مارستُ كل شيء كما في الماضي مع سارة، لعبنا سوياً في الحوش، قرأنا، التقينا كما في سابق طيشنا بنور وحسين، قبلتُ مساحات ممتلئة بيننا، وطويتُ مسافات خالية لم تعد بيننا، لم تقطع تأملاتي خالتي عواطف، ظلت تبتسم فقط، تعد لي وجباتي المفضلة، تقبلني... تمنحني دلالاً مفرطاً، وتصحبني كل مساء إلى خلوة المسجد ليقرأ علينا أبي ما تيسر من القرآن، لأعود صحيحة معافاة كما أسرت لي أمي عواطف... ووجدت لذة عظيمة في الاستماع للقرآن زال عني كل ما كنت أشكو منه، اندثر كل ألم، شفيتُ من كل خوف ولم أحلم مجددا بأي شيء يقض مضجع سعادتي، وأوفت لي الحياة بكل شيء نذرته، كانت رسائلها زادي لحياة ما بعد الحياة، أبي ظل يزورنا كل صباح ومساء، نجلس ونتناول الشاي بالزلابيا ونفعل كما كنا في السابق، وعدنا أسرة سعيدة مع سارة وحمزة... ومضت الكثير من الأوقات العصيبة وغادر الحزن إلى غير عودة وباتت حياة حياتي القادمة...

الفصل السادس:

رسائل إلى حياة:

سلام على الراحلين
حياة...

شيء إليكِ يشدني
لم أدرِ ما هو منتهاه
يوماً أراه نهايتي
يوماً أرى فيه الحياه...

لـ«درويش».

أمي العزيزة حياة... سلام من الله عليكِ

أمي أتعلمين أنني أتباهى بشرف دفئكِ، أحسكِ هكذا، لم تبخلي عليّ بحنان أم، كنتِ أكثر مما توقعتِ أو تخيلتُ أو ربما كما أردتِ، أعلم جيداً أن هناك الكثير من التفاصيل الصغيرة عن حياتنا غائبة عنكِ، ولكنكِ برغم ذلك منحتني كل شيء، لقد عشنا الكثير من الوقت معاً، لعبنا فرحنا حتى شجرة اللبخ سطونا على أسرارها معاً، علاقتنا صداقة أمومة، لم يكن يهمني بماذا تخاطبينني، المهم هو ذاك الدفء الذي وجدته فيكِ، دثار الرأفة والود...

لقد جعلتني قوية يا أمي، صبركِ على كل شيء، الابتلاءات المتلاحقة، طلاقكِ، حمزة ابنك الذي فقدتِه، شيخ تمساح وزيارته المتكررة في الحلم... كل شيء أعرفه عنكِ لعلكِ تتساءلين كيف عرفتُ كل ذلك، لن أخبركِ فبعض الحقائق يصلح كتمانها، أعلم جيداً أنكِ الآن سعيدة أكثر من أي وقت مضى، هانئة مطمئنة، بقرب من تحبين، سأكون لكِ مثلما تمنيتِ، وسأنفذ كل وصاياكِ... فليس هناك من بر أكثر من طاعة الأم...

رسالتي إليكِ يا أمي لا تحتاج لتاريخ لتتنفس، هي رسالة ابنة لأمها لا ترتبط بزمان أو مكان، هي عاطفة جياشة وكلمات ظلت حبيسة سنين وآن أوان قطافها، سألثمكِ عند كل رسالة، وسأبلغ عنكِ كل من منحتِه

ابتسامة، هم الآخرين لديهم ما يودون قوله لكِ... أفتسمحين لابنتكِ بمعانقة أحلامكِ...

سأهديك درويش كما تحبين:

(وسآتيكِ كما في كل ليلة
أدخل الشباك في الحلم
وأرمي لكِ فلة)
ابنتكِ حياة الصغيرة

اسمي حياة، حياة الصغيرة كما يحلو لأهل الكمبو مناداتي، لا أعلم من أي أب وأم انحدرت أو إلى أي بلد تعود جذوري، لكنني فقط أعلم تماماً أن حياة هي أمي وعواطف هي جدتي وشيخ الإمام جدي... سأروي لكم تفاصيل غائبة عن طفولتي وحياتي السابقة، وسأبدأ بعمر الخامسة عشرة، ما حدث قبله وبعده، هو ذات العمر الذي فقدت فيه أمي صديقتها سارة، لعلكم لا تعلمون أنني أيضاً صديقة أمي وأنتحل اسم سارة، وصديقنا الثالث أخي في الغياب حمزة...

منذ عهد غائب كان الكمبو هادئاً، ليس هناك من شيء يهز سكونه أو يوقظ قفاره بعاصفة، غير أن ذاك الهدوء انكسر عندما ظهرتُ على أفق الكمبو، بالطبع أنا لا أعرف من أين أتيت، لكني علمتُ بقصتي المتناقلة بين الأجيال في الكمبو، تعهدتني حبوبة نفيسة برعايتها في عامي الأول، ولعل النصيب الأكبر من شق تربيتي وقع على عاتق ابنتها سعدية، مُنى

ابنة سعدية، أظنكم تذكرون صرخاتها الصباحية التي توقظ بها الكمبو، لم تقبلني كأختٍ لها، وسعدية سئمت من اهتمام الآخرين بي، تنقلتُ بين الكثير من الأمهات في الكمبو ولم تقبلني أي أسرة، كنتُ كالمس أينما ولجتُ منزلًا ارتفع صوت الخصام، لم أكن أدرك شيئاً مما حولي، لكني علمتُ أن كل رجل في الكمبو وامرأة كان يبحث عن وجه الشبة بيني وزوجه، فقد كنتُ مثاراً للغيبة، حتى حاج مكي لم يستطع أن يمنحني أماناً في بيت، ولعل سبب ذلك طليقة دكتور عثمان والشائعة التي أخرجتها بأبوة الدكتور لي، كانت تلك الشائعة قد تسببت في الكثير من الكوارث التي إلى يومنا هذا تدور بين مجالس الجدات...

لم أجد من يعانق وحدتي، وقد أكملتُ من العمر عامي الأول، في ذاك العام نشأت علاقة بيني وبين أمي حياة، أسرتني جدتي عواطف أن أمي هي أول من حملني وعانق وحدتي، كانت أمي تأتي لزيارتي كل يوم، تقول جدتي إنني عشت سعادة عظيمة في بيت حبوبة نفيسة، لكني لا أذكر شيئاً حتى بعد أن بلغتُ من العمر سبعة أعوام وأجبرتني ظروف مرض أمي أن أمكث بصحبة مُنى أسبوعًا، كان ذلك الأسبوع من أبشع أيام حياتي، ولكم أن تتخيلوا معنى أن تشعر طفلة في السابعة باليتم والخوف وتحاول الهرب في اليوم الواحد أكثر من مرة، ولكم ألا تتوقعوا أن يتم ربطي إلى السرير لمدة أسبوع حتى لا أكرر محاولة الهرب ثم شماتة مُنى، إنها ذكريات سخيفة لا أحبها أبداً... حياتي بدأت مع أمي حياة، هي أمي من جاهدت لكي ألتحق بالمدرسة، حاربت لتكسر قاعدة اسم أبي المفقود، أذكر ذاك

الحوار بينها وبين مديرة مدرسة الأساس...

ـــ لي ما عاوزة تسجلي بنتي؟

ـــ يا حياة بنتك دي وين اسم أبوها، أوراقها ناقصة إدارة التعليم ما ح تقبل بتسجيلها...

ـــ اسمها حياة بنت حياة وجدها الشيخ الإمام، إمام المسجد، وكن عاوزة ورق نطلع الورق

كنتُ في السادسة من عمري، عندما أتذكر ذلك الحوار لا أجد له منطقاً، فمديرة المدرسة محقة في كل شيء، لكن أمي تحمل حجة قوية، تقول بعلو شجاعتها: إنني حياة بنت حياة، أوتعلمون أن اسمي في المدرسة حياة بنت حياة؟! مؤكد أن ذلك يثير حفيظتكم أو سخريتكم، لكنها أمي وكفى...

من عمر مبكر بدأتُ القراءة مع أمي، كتبنا سوياً، كنا نجلس في الليالي القمرية في حوش جدتي عواطف، نتناول شاي اللبن، وتقرأ عليّ بعضاً من أشعار درويش، كانت دائماً تردد قصيدته أمي، ولم أكن أجد لها من تبرير في وقتها، لعلكم لا تعلمون أنني كنتُ أظن أن جدتي عواطف هي والدة أمي، كنتُ أستنكر مخاطبة أمي لي في أحيانٍ كثيرة بكلمات تكبر قدرتي على الاستيعاب والرد، أقف كالبلهاء أحاول تفسير ما نطقت به، لتنجدني جدتي عواطف في الوقت المناسب، حتى إنها كثيرا تناديني بسارة حتى اعتدت على ذلك بعد أن أخبرتني جدتي أن لكل شخص اسمين كما اسمها عواطف فهي جدتي عواطف وأمي عواطف، وحياة هي أم حمزة تلك المبررات كانت كافية لإسكات نهم المعرفة لطفلة بعمر السابعة.

كانت أمي كثيرة الصمت، نحيلة جداً، تجلس دائماً في غرفتها التي علمتُ فيما بعد أنها غرفة سارة، مرة كل شهر يدوي صراخها قفار الكمبو، لم أكن أعلم أن ذلك بسبب الآم الطمث، كان ألمها عظيماً ولم يكن تحت قدرة احتمالها، مرت الكثير من الآلام إلى أن جاء يوم أذكره كما البارحة، كنتُ قد وصلتُ الصف الثالث من مرحلة الأساس، عدتُ من المدرسة سعيدة بنتيجة العام الدراسي وحصولي على تقدير ممتاز لأنتقل إلى الصف الرابع بتفوق كعادتي، كانت السعادة ترفرف عليّ بكلتا جناحيها، عدوتُ متقطعة الأنفاس لأعانق أمي وأزف اليها نبأ تفوقي، تقريباً كان موعد صلاة الظهر على الأبواب وجدي الإمام مازال يدرس في الخلوة، عرجتُ عليه أولاً وأخبرته بنجاحي ثم واصلتُ الطريق إلى منزلي.

كان المنزل يبدو هادئاً أكثر من المعتاد، فتلك الساعة هي موعد قهوة أمي وجدتي يتناولنها في الراكوبة هادئتين تجتران ذكريات قديمة وتخططان لمستقبلي، لم يكن هناك أثر لجلسة قهوة، تفقدتُ المنزل ببصري؛ يبدو خالياً، تساءلت كثيراً بعلو حاجتي:

ـــ أمي أين أنتِ؟ جدتي عواطف أين أنتِ؟

ولم تجبني غير رياح الكمبو الساخرة، درتُ حول المنزل ولم أجد أثراً لشيء، تملكني خوف عظيم، أحسستُ أن كل شيء قد انتهى، وسمعتُ صوت جدتي تصرخ بعلو يأسها:

ـــ الحقونا يا ناس... حياة يخواني تنزف.

لم يكن بيني وبين مصدر صوت جدتي غير الترقب والإنصات، لحقتُ

بكل صدى يقربني منها، كانت أمي ترقد هامدة في غرفتها تئن يخرج من بين فخذيها دم كثير انتشر في كل شيء حتى أرضية الغرفة، جدتي تقف في الحوش وتصرخ، وقفت واجمة لمدة طويلة، ثم هرولتُ وأتيتُ بإبريق ماء وبدأتُ في صبه على جسد أمي، كنت أردد:

ـــ دا ما دم... أمي كويسة ما ماتت... أمي كويسة ح تقوم!

أفرغتُ برميلاً كاملاً قبل أن تلحق بي جدتي لتوقف طيش خوفي... حملنا جدو عبدالله بعربته إلى مشفى المدينة، أُدخِلت أمي لعملية مستعجلة علمتُ فيما بعد أنه تم إزالة رحمها ولن تستطيع الإنجاب مرة أخرى، لم تحزن أمي بقدر حزن جدتي.... صامت جدتي عن الزاد مدة طويلة، كانت تسهر لياليها وتبكي في شجن، كانت تردد اسم سارة كثيراً، قالت إن الله وهبها سارة وأخذها منها ثم منحها حياة وحرمها من الإنجاب.

كنتُ أجلس في تلك الليالي أراقب نجوم الكمبو ولا أجد تفسيراً لما تصرخ به جدتي، ظلت هكذا جدتي حبيسة نجوى حتى بعد أن تعافت أمي تماماً وعادت إليها صحتها وجمالها، لم يتحدث أحد مع جدتي تركها جدي الإمام حتى عادت إلى رشد فكرها لتهبني الكثير من الحنان، قالت لي:

ـــ لقد نسيتُ يا حياة، أن الله قد وهبكِ لنا ابنة وحفيدة... أنتِ حفيدتي... فليغفر لي الله!

وأعلم أن الله سيغفر لها....

لقد نضجتُ في سن مبكرة، ظهر جمالي اللافت مبكرا وأغرى الكثير من شباب الكمبو، الجميع كان يهمس أنني أشبه أمي وجدتي وكنتُ ولا

زلتُ سعيدة بذلك، لعل ذاك الجمال المشترك قد منحني تأشيرة إثبات نسب مجهول... أذكر أول مرة نلتُ فيها غزلًا سخيًّا، كانت هناك زيارة تفقدية لموجهين من العاصمة، كنتُ في الصف الخامس، دخل الموجه إلى غرفة الصف يراقب أداء المعلمة، تنبه لي بعد انتهاء الدرس، كان يقف في الخلف، خاطب المعلمة قائلاً:

ـــ البت دي ما كبيرة على سنة خامسة؟

ردت عليه المعلمة أنني في نفس عمر البنات بل أصغر بعضهن، ثم أعقبتها بكلمة لم أفهمها جيداً حين قالت:

ـــ هي فاخرة بس؟

تلك العبارة أدت إلى إشعال نوبة من الضحك في الصف، أذكر أنني لم أكمل اليوم الدراسي وعدتُ إلى أمي هاربة من جحيم موجه زائر ومعلمة قلت لأمي:

ـــ يعني شنو يا يما فاخرة...؟

رمقتني باستهجان ثم ابتعلت آخر جرعة من فنجان قهوتها، وقالت:

ـــ جبتي الكلمة دي من وين...؟

وبأنفاس متقطعة:

ـــ ست آسيا قالت أنا فاخرة.

ابتسمت أمي ابتسامة كبيرة، تلك الحادثة من اللحظات القليلة التي نلتُ فيها ابتسامة سعادة من أمي، لم تجبني مباشرة بل فتحت لي ذراعيها لعناق، وعانقتني مدة طويلة، حتى خفت دقات توتري، أجلستني على حجرها

وهي تمسك بأصابع يدي وقالت:

ـــ بنتي كبرت واحلوت والناس بقوا شايفينها...

ولم أفهم بعد ما ترمي إليه أمي، كانت جدتي تمسح دموعاً منفرطة، تراقبنا بتسامح وتبتسم في حزن، هناك شيء بين أمي وجدتي لم أستطع أن أتبين مغزاه في ذلك الوقت وعلمتُ فيما بعد أنهن يتشاركن الخذلان ويسعين لسعادة في حياة الصغرى...

مرت الأعوام وتميزتُ في كل شيء، جميلة كما كتبتني أمي، عنيدة كما تقول جدتي، نجيبة كما يفخر بي جدي... لكم أن تتخيلوا أنني أملك كل تلك الصفات، نعم أملكها دائما، أمي تذكرني بجمالي، تحصنني، ترافقني إلى أي مكان، حتى مغامراتي في شجرة اللبخ كانت بإيعاز منها، بالطبع لم يكن هناك من شاب يجرؤ على الاقتراب مني وأمي تجلس كالرقيب معي طوال الوقت حتى في نزهاتي الخاصة، لم تكن لي صداقات ولم أسع لذلك، فأمي هي صديقتي تفعل معي كل شيء، أحياناً أحسها تصغرني عمراً، وأحياناً أراها هرمة عاجزة عن كل شيء، ظلت أمي وفية لماضيها مع صديقتها سارة، سعت لتحقيق أحلامهما بنجاحي وتفوقي... ونجحتُ وتفوقتُ في كل شيء، حفظتُ القرآن من جدي، كنتُ كتعويض يليق بصبر أسرتين حملتا أوجاعاً كثيرة...

من الأحداث التي لن أنساها، والتي شكلت محورا مهماً في حياتي، امتحان الصف الثامن من مرحلة الأساس، لم تكن لي أوراق ثبوتية في المدرسة غير حجة أمي أنني ابنة حياة، وبالطبع تلك الحجة غير مبررة لالتحاقي بامتحان

شهادة الأساس الولائي، قبل شهر عن موعد الامتحان أرسلت المديرة في طلب جدي، أخبرته بضرورة استكمال أوراقي الثبوتية حتى تستطيع أن تستخرج لي رقم جلوس يخولني الجلوس للامتحان، قال جدي في تحسر محدثاً نفسه إن المديرة كانت جد حزينة وهي تقول ذلك؛ لأنها تعقد أملًا كبيرا في تفوقي وتشريف اسم المدرسة والمنافسة على مستوى الولاية، ذلك النهار زارنا جدي خلسة، جلس مع جدتي وطلب منها إخفاء الأمر عن أمي، قال إنه ليس بيده فعل شيء وهذه قسمتي ونصيبي، يكفي ما تعلمته إلى الآن، وإن فتح نقاش في هذا الأمر مع أمي سيعيد قصتي إلى بدايتها وهو يخاف أن يشوه حاضري بماض لا ذنب لي فيه وأطاعته جدتي...

مضى أسبوعان ولم أعلم شيئاً، أهناك مساع جادة من جدي لاستكمال أوراقي؟ لقد سمعتُ حديث المديرة مع جدي لكنه حذرني من بث السر إلى أمي، قال إنه سيتصرف وكل شيء سيكون على ما يرام وسألتحق بالامتحان، وعلى ذلك اطمأنت روحي وواظبتُ على القراءة، بالطبع بعد فترة سألتني المديرة عن أوراقي الثبوتية ولم يكن لدي ما يسد رمق سؤالها، عدتُ إلى جدي أستفسر، أخبرني أنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء، وأنني يجب أن أرضى بقسمتي ونصيبي... ولم أرض ولم أصمت، فأنا ابنة حياة الثائرة، ويجب علي أن أحقق أحلامها... طرت إلى أمي طلباً في رحمة، أكاد لا أنسى تفاصيل وجهها وهي تستمع إلى حديثي، لم تجبني بأي كلمة بل تقدمتني إلى منزل دكتور عثمان...

كان ذلك هو أول يوم منذ أكثر من أربعة عشر عامًا تعود فيه إلى منزل كل

ركن به يذكرها بموت مؤجل، شجاعة عظيمة تلك التي كست ملامح أمي، قوة كبيرة جعلتني أفخر بها أكثر، ووقفنا صامتتين أمام المنزل، منزل الدكتور كما الجميع يقول من أجمل منازل الكمبو، بناؤه بالطوب الأحمر، له مولد كهربائي ينتشر صوته في ليالي الكمبو الهادئة، لم يكن من أحد يجرؤ على الجلوس في المساحة المتاحة قرب المنزل بالرغم من الشجيرات التي تحيط به وتجعله مغرياً للعلب من الصبية والشباب، ولعل ذلك السبب يعود لزوجته هنادي، نعم لكم أن تحتاروا الآن لقد أعادها إلى عصمته بعد طلاقه من أمي، ولم تستطع إنجاب طفل واحد له، حاجة نفيسة تولته بخوفها وأشاعت أن هنادي «كتبت الدكتور وطبته»، لذا انفض الجميع عن منزل الدكتور حتى حاج مكي بعد عام توفي في المسجد ولم يتمكن ابنه من نصب سرادق عزاء يليق بابن بار...

طرقت أمي بقوة على الباب، فتح الباب الدكتور هو الآخر توقف يخنقه التساؤل، ظل لوقت يسير يراقب أمي متوتراً، لم تنتظر منه كلمة بل اندفعت كالشلال قائلة:

ــ اسمع يا عثمان، حياة دي بنتي أنا، عاوزة تمتحن من تامن وأنت عارف ما عندها شهادة ميلاد، فيا اخوي إنت شغال في المستشفى... طلع لينا شهادة ميلاد باسمها بكرا... دي نستلمها منك...

واستدارت للخلف تمسك بكفي، ثم التفت بسرعة وهي تقول:

ــ اكتب اسم أي زول أبوها، ما مهم إن شاء الله تكتب اسمك، أهو تبقا عندك جنا حتى لو بالورق.... بكرا ما تخليني أجيك هنا وازعجك،

جيب لينا الشهادة في البيت.... سلاااام.

لم تندهش أمي حين أخبرتها أن الدكتور قد حضر إلى المدرسة وقابل المديرة وأعطاها شهادة ميلادي ومكتوب في خانة اسم الأب عثمان مكي، وبالطبع في خانة اسم الأم حياة الإمام، لقد حلتها أمي بكل بساطة، لم يكن الأمر يستحق أكثر من شجاعة وحب، أمي أهملت كل شيء وصرتُ شغلها الشاغل، لم تؤنب جدتي ولا جدي...

جلستُ للامتحان وكما تنبأت المديرة تفوقت وحصلت على المركز الثالث على مستوى الولاية، ذلك اليوم كنا وأمي نترقب النتيجة بين خوف وطمأنينة، كانت أمي تثق في تفوقي وتردد إن دعوتها لن يخيبها الله، واستجاب الله لدعاء أمي... لم نسمع النتيجة مباشرة كان الراديو الذي أهدانا إياه الدكتور بعد أن أصبحتُ ابنته قد نفدت حجارته، ولعل كراهية أمي لرؤيته وهو يصدر أغانيه الصاخبة معكراً بها هدوء قفار الكمبو قد دعتني لأن أهمل أنا الأخرى أمره...

صباح يوم إعلان النتيجة سمعنا صوت عربة كان الدكتور يزمر بعربته أمام باب منزلنا، ترجل من العربة ثم دلف إلى المنزل وهو يصرخ بعلو فرحة:

ـــ حيااااة... حيااااة!

تلك كانت من الأيام القلائل التي رأيت فيها نظرة ضعف على وجه أمي، لعلها قد تذكرت أيامًا خوالي، لكن الدكتور لم يكن ينادي على أمي فأنا الأخرى (حياة)، صرخ مرة أخرى ونحن نتفرس في مسافة فاصلة

بيني وأمي، (حياة بنتي)، ولم أكن ابنته بحكم شرعة أمي، انتفضت أمي خارجة وقفت قبالته ترتجف غضباً واستعصت عليها الكلمات، عدوتُ في إثرها خائفة أترقب، اقترب مني الدكتور معانقاً رفعني لأعلى في فرح وسعادة دار بي بفخر، بكى بشغف ثم قال:

ـــ مبروووووك يا بنتي... جيتي التالتة على مستوى الولاية!

أحاسيس كثيرة اعتلتني، لم أعرف كيف أتصرف، أمي هناك تقف سارحة في فضاء لا شيء، أنا سعيدة، نعم! لكني لست في المكان الصحيح، يجب أن أكون في حضن أمي، تململتُ بشدة فتركني في حيرة، وعانقتُ أمي بكل سعادتي وحزني وخوفي، ظلت أمي صامتة لا تشاركني بإحساس، سارحة فقط، خفتُ... صرختُ... بكيتُ ولم تصح أمي من غفلتها، نظرتُ إلى دكتور عثمان وقلت له:

ـــ أنا لستُ ابنتك... انا ابنة حياة... اسمي حياة بنت حياة.

واستيقظت أمي، لعلها كانت تحتاج لكلمة مني تثبت حق أمومتها المستلب... رمقنا الدكتور بنظرات متفرسة بينما لاحت نظرة حزن طفيفة عليه ثم خرج مسرعاً...

أن يكون اسمي في شهادة الميلاد حياة عثمان مكي هو بذخ لم أعد أحتمله، هو وصمة لن تفارقني، وعادت شائعة أنني ابنة دكتور عثمان للطفو مرة أخرى، غير أنها هذه المرة قد تم تتبيلها بما يليق بالماضي الحاضر، فأمي هي حياة، نعم، الجميع يجزم أن أمي الحقيقية هي حياة، وأنها هي من رمتني بعد ممارسة علاقة غير شرعية مع أبي الدكتور عثمان، ووجدوا مبررات

كافية بنسج قصص عن إصرار زواج أبي من أمي برغم علمه بالهلوسات التي كانت تنتابها، ثم أعقبوا ذلك بعلاقة الحب بيني وأمي وإصرارها على تربيتي، كل شيء كان مقنعاً إلا إنني كنت أعلم ما لم يعلمه أهل الكمبو.

وجدت أسرار أمي في مفكرتها، وعرفتُ من تكون أمي، سأخبركم عنها لاحقاً لكم أن تتوقعوا من خلال الأحداث كل شيء... دكتور عثمان أبي، نعم أبي في الأوراق الثبوتية، وجدني كما كان يحلم أن تكون ابنته، ظل في محاولات عديدة لينشئ علاقة بيننا، قدم لي الكثير من الهدايا والكتب حتى إنه أعطاني مفكرة كمفكرة أمي وذيلها بتوقيعه: إلى ابنتي حياة، بالطبع رفضتُ قبول أي هدية منه إلا المفكرة قبلتها، خبأتها عن أمي ودونت فيها ما عجزتُ عن فهمه وقوله.

لم أعتد أن أخبئ عن أمي شيئا، لكن تلك المفكرة قد فتحت لي كوة من ضوء تربطني بوثاق حب شفيف مع أمي... أحب أن أخبركم أن ما يربطني مع أمي ليس حنان أم ورعاية فقط، هناك شيء في مفكرة أمي خاص جداً لم يطلع عليه أحد غيري، لقد أسميته (سر الأمومة) هي مراسم ولادتي...

ظل الدكتور يحاول إدهاشي بهداياه، يزورني في المدرسة الثانوية وبالطبع لم يكن يملك جرأة كافية تخوله لزيارة منزلنا، سعيدة أنا جدا أشعر بفخر، فعلى الرغم من كل شيء، فقد ظهر لي أب يحاول جاهدا أن يجعلني ابنته، ولي أم لا تقبل بأبوته، سبحان الله! فبعد أن كان الجميع ينفر مني ومررتُ على كل بيوت الكمبو في مهد طفولتي، وإصرار أمي على تربيتي برغم كل ما كانت تعاني منه، إلا أنني أصبحتُ بعد ليلة وضحاها مصدر

فخر الكمبو، وصرت حديثهم الشاغل، ولكم أن تتخيلوا أن أي أهل بيت استضافوني ولو ليوم واحد يدعون أني ابنتهم، سعيدة إلى حد كبير، فبساطة أهل الكمبو قد بدأت تتفتح أزهارها أمام غيث تفوقي، وصرتُ الحافز والمثل الأعلى لكل بنات الكمبو...

ـــ اقروا عشان تبقوا زي حياة!

ـــ حياة يا يما بنت السرور.

ـــ طايعة أمها متفوقة.

وانعكس ذلك على أمي وجدتي وجدي، خيلاء عظيمة تسربت إلى منزلي، فجأة صارت أمي زعيمة وجدتي عرابة كل بنات جيلي، وأنا بين كل ذلك أكتب في مفكرتي وأردد كلمات درويش:

(اصرخ لتعلم أنك ما زلت حياً وحياً...

وأن الحياة على هذه الأرض ممكنة).

ولم أصرخ بصوتي لكني صرختُ بتفوقي، السعادة التي غمرت أمي جعلتني أعيد ترتيب حياتي بما يليق ببرِّ أمي، هي دافعي للحياة، وهي كل ما أملك من حب وقدرة على العطاء، وتفوقتُ في كل شيء، لم أعش مراهقتي كما يجب، عثة كتب، وقت فراغي أمضيه بين مفكرتي وروايات أمي، وتبادل الونسة في حضن أمي بصحبة جدي وجدتي، مرت مراهقتي سريعة حتى أنني لم أحس بها، كنتُ أعدو بكل ما أوتيت من تصميم لأحقق طموح أمي، كان هناك هدف خفي تتكئ عليه مخاوفي هو خروجنا من الكمبو، من كل شيء يربطنا بماض طوينا صفحاته ومزقنا أحزانه، غير

أن تلك الصفحات يمكن أن يُعاد تجميعها في أي لحظة، فالكمبو مجتمع صغير يلعق الشائعات ويتبلها جيداً، الأجيال تحفظ كل شيء، ولعل إصراري على مغادرة الكمبو أتي بعد حادثة خطبتي.

كان يوماً ككل الأيام التي تمر عليّ، كنتُ قد بلغت الصف الثاني الثانوي، خطبني معلم يعمل في مدرسة المدينة الثانوية بنات، تلك الخطبة تمت في صمت كما رُفضتُ في صمت، فقد علمتُ من أبي الدكتور أن معلمي قد ذهب لزيارته في المشفى وطلبني للزواج، أبي تصرف بحكمة وقال له إني أمام امتحان ثانوية ولي طموح والكثير من المبررات التي توضح رفضه المغلف بتهذيب، غير أن معلمي قال إنه يعلم كل شيء وسينتظرني إلى أن أكمل المرحلة الثانوية...

ما يهم في تلك الخطبة أن القصة ليست مهمة، ولكم أن تتوقعوا ماذا حدث، معلمي العاشق أسر لمديرتي في مرحلة الأساس بعشقه باعتبارها من سكان الكمبو وتعرف أمي لتتوسط له، كانت المديرة أمينة جداً في كل شيء، فباحت للعاشق بما دفنته السنون، ولم تنته عند ذلك بل أشاعت الخبر في الكمبو حتى وصل لأمي، وأمي هي أمي، لقد منح الله المديرة عمرا جديدا بعد أن نجت بأعجوبة من اعتداء أمي، نعم أمي اعتدت على الست المديرة، ذلك الاعتداء ألجم الكثير من الأفواه المترددة، لكنه فتح بصيرتي على معضلة أعمق، وباتت التساؤلات تقض مضجع سكوني.

مرت أيام سكنتُ فيها بغرفتي خوفاً وتفكيراً، لعلها المرة الأولى التي أفكر فيها بكوني امرأة وأستحق الحياة، قبلها لم أكن أنظر لشيء في الحياة

غير تحقيق طموح أمي، لكني أدركتُ بعد تلك الخطبة أن حياة الصغيرة تستحق الحياة:

(قُل ما تشاءَ.

ضَعِ النقاطَ على الحروفِ.

ضَعِ الحروفَ مع الحروف لتُولَدَ الكلماتُ،

غامضةً وواضحةً، ويبتدئَ الكلامُ)...

وقلت ما شئت كما قال درويش، قلتُ إن حياة تستحق الحياة، إن حلم أمي يحتاج لحياة كاملة، وليس إلى تفوق دراسي، يجب أن تكبر أحلامي بما يليق بسعادتي، وسعادتي في الكمبو محصورة بين مجتمع وشائعات، لن ترحمني الكمبو ولا الريف من حولها، سأكون مهما بلغتُ من تفوق حياة الطفلة المسجاة، وستحزن أمي...

وارتفع سقف أحلامي أكثر، صرتُ قليلة الكلام؛ أكتب... أقرأ... أدرس، صمتت الكمبو عن الحديث عني، وكان ذلك الصمت بسبب وفاة هنادي إثر حادث سير وهي في طريقها إلى الخرطوم، سمع الجميع عن الحادث ولم يجرؤ أحد على تعزية أبي، بالطبع إلا أنا وأمي وجدي وجدتي، عاد أبي بعد أسبوع إلى منزله، زرناه في مساء مكتمل القمر، كانت الكمبو تتنفس هواء منعشًا، رحب بنا في صمت، برندة طويلة بممر واسع هي التي استقبلت أولى خطواتنا، جلسنا في صالون الضيوف، ثلاث سراير تتوسطهم سجادة تركية، ومنضدة عليها مزهرية تنمو عليها ورود حمراء، الجدران باللون الأخضر، الإضاءة الخافتة هي الوحيدة التي شاركت أبي

حزنه، حقيقة لم أشاهد جدتي سعيدة كذلك اليوم، لن أقول إنها شامتة لكنها كانت تردد بفخر:

ـــ حق بنتي.. الله انتقمه منها.. الفقر وش النقر، راحت في ستين داهية الله لا عادها!

وراحت إلى عليين كما قال جدي، جدي أيضاً شارك أبي حزنه، واساه بكلمات كثيرة ودعوات مباركة اجتر معه ذكريات مُحببة عن صديقه حاج مكي، وبالطبع أمي لم تأتِ لتشارك أبي حزنه ولا لتعزيه، لقد جاءت لأن جدي أشار عليّ بالذهاب معهم، وأمي لن تأمن مكر دكتور عثمان وتتركني وحيدة معهم، غير أني لم أصدق مبرر أمي، لا أدري لأول مرة أشعر بها تحاول إخفاء شيء ما، لزمتُ الصمت كعادتي في مثل تلك المواقف، كنتُ أراقب الوجوه بحياء، لم أجد غير نظرات أبي الحزينة وأمي السارحة وابتسامة جدتي الواضحة تحفنا دعوات أبي، وحزن جدي على صديق عمره، ثم خرجنا وودعنا أبي بامتنان عميق، صافحنا جميعاً على عكس استقبالنا، وكانت مصافحته لأمي ذات طابع خاص، شاهدتُ جنين حلم ينمو بينهما، ومن يومها بتُ أتتبع مراحل نمو ذاك الجنين، إلى أن تعلم المشي من جديد....

الدنيا غريبة فعلاً، ترمينا في ملاءٍ كبيرة، تمنحنا أشياء وتحرمنا من شيء واحد نظن أنه مركز الكون، الإنسان بطبعه ضعيف عجول، تحملنا لنكبات الحياة، يقف على قوة إيماننا يقيننا، لكننا أحياناً كثيراً ما نفقد هذا اليقين، فنقع فرائس لعجلة لن تجلب لنا غير النقمة...

كان حلمي هو دراسة الأدب، لذا منذ البدء اخترت المساق الأدبي، امتحنتُ الشهادة الثانوية ونلت نسبة عالية أتاحت لي حرية اختيار الكلية التي أحب، التحقتُ بكلية الآداب جامعة الخرطوم، قسم آداب لغة فرنسية، انتقلنا إلى الخرطوم عقب قبولي في الجامعة، جدي ظل في الكمبو يزورنا يوم السبت من كل أسبوع، استأجرنا منزلاً متواضعاً مشتركًا مع أسرة أخرى يتكون من غرفة واحدة لدراستي، وبرندة لاستقبال جدي والمبيت فيها، حوش صغير يكفي لمساحة سرير نستعمله عند انقطاع التيار الكهربائي....

المنزل في حي عريق من أحياء الخرطوم، يقع بجوار سينما عتيقة، أغلب سكانه من المواطنين القدامى الذين شهدوا حروب المهدية، كغيره من الأحياء العريقة له رائحة حياة مميزة، ترابط أسري جميل أزال عن أمي وجدتي شعورهم بالغربة، فجلسات القهوة والتعاون في الأفراح والأتراح جعلت ذلك الحي هو كمبو آخر، غير أنني كنتُ في دنيا أخرى ولم أستطع أن أشارك همومي أحدًا...

الحياة تختلف كثيراً هنا في كل شيء، كنتُ أحتاج لدليل، شخص ما يقف بجوار مخاوفي، يربت على هواجسي، ويمنحني سكنى، ولم أكن أملك شجاعة كافية لأطلب معونة من أحد، الجامعة شيء يصعب وصفه كما يصعب وصف شعوري، فما بين رهبة ورغبة كنتُ أقف في طريق لا أعلم وجهته، كان يوم إثنين هو أول يوم في الجامعة، وكعادة جدتي حصنتني بما تيسر لها من القرآن، وكعادة أمي عانقتني صامتة، وقفتُ في الطريق أقلب

تفكيري أبحث عن وجهة تمنحني الشجاعة الكافية لأطوي المسافة بين بيتي والجامعة، لم أصدق ما رأيت عندما وقف أبي بجواري، فتح لي باب السيارة وأشار عليّ بالجلوس في المقعد الأمامي....

ظل صامتاً تقريباً طوال الطريق، كانت هناك الكثير من الأسئلة التي تؤرقني، الكثير من المخاوف تضرب في معركة الصمت الخاسرة التي حاولتُ أن أتحكم في وطيسها وسألته:

ـــ أهي صدفة حضورك إلى الخرطوم اليوم خاصة ووقوفك أمام منزلي؟

ظل منتبهاً على الطريق أمامه، وظللتُ أتأرجح في أسئلتي بين لساني وشفتي وعاودتُ أسئلتي من جديد:

ـــ كيف عرفت أين نسكن؟ لا تقل إنك لا تعلم؟

ولم يرد أيضاً، وبطبعي لم أكن لحوحة، صمتُ بعد أن بدأ انزعاجي يثير صمت أبي، هي تلك المرة الأولي التي أفتح فيها حديثاً مطولا مع أبي، لم أتبين الشوارع والمارة، كل شيء كان يختلط مع رغبتي وخوفي، ووصلنا إلى الجامعة، توقفت العربة في شارع الجامعة أمام بوابة هالتها مشرئبة تعانق السماء، ترجل أبي من السيارة وأمرني باللحاق به، كنتُ خلفه أهرول بأنفاس متقطعة خوفاً ورهبة، لم يترك لي فرصة لأمتحن شغفي بمعرفة قاعات الدرس أو لأتفقد وجوه الطلاب، كان يسير بمعرفة وخبرة، وقفنا أمام مكتب عليه لافتة مكتوب عليها إجراءات التسجيل، سمعته يتحدث بصوت خفيض، ثم فُتح لنا الباب ودلفنا إلى الداخل من بين وسط الجموع الغفيرة التي تقف في صفوف متوازية أمام المكتب...

المكتب هو مجموعة مكاتب بأكثر من موظف، رحب بنا رجل مسن واقتادنا إلى مكتب داخلي، على المكتب الداخلي يجلس رجل يبدو في الخمسين من عمره رحب بأبي قائلاً: «أهلا يا مستر»، المكتب كان فخيماً أكثر مما يجب لدرجة جعلتني أظن أن المكاتب الملحقة به لا علاقة لها به، تحدث أبي بهدوء بعد أن عرفني على الرجل الذي علمتُ فيما بعد أنه صديق أبي وزميل دراسته، قال أبي:

ـــ حياة ابنتي تم قبولها في كلية الآداب قسم لغة فرنسية، هو اليوم الأول لها في الكلية، ونسبة لظروف خاصة بأمها لم أتمكن من استكمال إجراءات التسجيل لذا هي اليوم في عهدة سخائك.

وابتسما سوياً، قلبا دفاتر قديمة، ونكات كثيرة، ومغامرات شائكة، وجدتُ نفسي بينهما سعيدة ومطمئنة، وانتهت مخاوفي من الجامعة، كان أبي هو من صعد بي درجات الحلم، تقدمني في كل خطوة، مسح غبار هواجسي، ومنحني حياة أخرى، وتوطدت علاقتي بأبي، زيارات متتالية في الجامعة تعرف على كل صديقاتي وأصدقائي، ساعدني في دراستي وبالطبع جعلته يفخر بي قال لي بعد وقت طويل:

ـــ أتعلمين يا حياة، أمك هي فقط من تعلم عن معاناتي عند التحاقي بالجامعة، لقد مررتُ بأوقات عصيبة، تعرضت للكثير من الاحتمالات، ولم يكن هناك من أحد بقربي لأتكئ عليه، يقولون رجل يجب أن يعتمد على نفسه، ولم يدركوا أن هذا الرجل لم يكن إلا مراهقًا تعدى سن الحلم برجولة متوهمة... لكنكِ ابنتي، نعم ابنتي، وأفخر بذلك حتى لو لم تكوني

من صلبي، فأنتِ ابنتي، أنا أعتبر نفسي أسعد الرجال منذ اليوم الذي زارتني فيه أمكِ وطلبت مني أن أستخرج لكِ شهادة ميلاد، في ذلك اليوم انقشع ضباب كثيف حجب سعادتي، أصبح لي هدف أحيا من أجله، لا يهم إن لم تقبلي كلماتي الآن، لكني أعدكِ أن أكون لكِ خير أب وصديق، لا زلتُ يا حياة نادماً جداً على زواجي من هنادي، نعم هي لحظة طيش وقعتُ فيها بمراهقة عمياء وظننتُ أن الحب هو أساس تكوين أسرة سعيدة، لكني بعد أن رأيتُ أمكِ علمتُ وتعلمتُ أن أكون قوياً برغم كل شيء مفروض علي، أمكِ أكثر قوة مما تبدو عليه حتى أكاد أجزم أنها أشجع امرأة قابلتها، لقد عانت وصبرت وعلى الرغم من ذلك فقد شقت طريقاً صعباً، حفرت بحبها لكِ ما عجز الجميع عنه، ها أنتِ الآن مثال عظيم لكل بنات الكمبو، نحن لم نترك لأمك حرية اختيار حياتها، أنا نادم على اقتراف الكثير من الأشياء... أتعلمين يا حياة أنني قد أحببتُ أمكِ بعد طلاقنا، لقد تزوجتها لأهرب من هنادي، لم أستطع أن أمنحها حباً يليق بإنسانيتها، أمكِ يا حياة عانت الكثير معي، أتعلمين كنتُ في الكثير من الأحيان أخاطبها باسم هنادي، حتى في علاقتنا الحميمة أخطأتُ كثيراً، حاولتُ أن أستميلها في البدء بعلاقة رومانسية بعد أن أشارت عليّ صديقتها سارة بذلك قبل وفاتها، منحتها مفكرة لتكتب لكني لم أدرك أنني منحتها الإذن لتكتب قدري المؤلم، أمكِ أصابتها هلوسات نتيجة لفقدها الجزئي لذاكرتها من شدة حبها لصديقتها، كانت الفرصة أمامي لأزيل تلك الهواجس وأمنحها حياة ومستقبلًا، لكن حبي لهنادي منعني

من ذلك... لا تقولي إنني ضعيف، أنا لست ضعيفاً لكني أحببتُ بصدق وانكفأتُ على خذلان عظيم من ذاك الحب، هنادي لم تكن تحبني كانت مغرمة بما يحمل جيبي من نقود، بعد الزواج علمتُ بخيانتها لحبي لها، علمتُ هدفها من الزواج بي، هددتها بالطلاق ولم تستجب، فانفصلت عنها مجبراً، لكن حبها ظل يراودني عن نفسي وعند أول منعطف من مرض أمكِ عدتُ إليها سراً... لست بهذا السوء يا حياة، إنني رجل مهزوم حظي عاثر، اكتشفت الحب بعد فوات الأوان، ولن أطمع في شيء أكثر من مغفرة أمكِ!

ظلت كلمات أبي تتردد على مفكرتي، دونتُ كل اعترافاته، وتعمدتُ بعد تلك الحادثة أن أسبر أغوار أسرار أمي، بتُ أذكر اسمي كاملاً كثيراً:

(غايتو يا حياة عثمان مكي).

(ما ممكن يا حياة عثمان مكي).

(أنا حياة عثمان مكي).

صرت أفتعل المناسبات لأذكر اسمي كاملاً ولم أجد في ذلك ما يثير حفيظة أمي، حتى إنها أحياناً تناديني (حياة عثمان مكي)، حاولتُ أن أرمي شباكي علني اصطاد شيئاً يترجم ما تسرب إلى مخيلتي من نشوء علاقة صامتة بين أبي وأمي... لكم أن تعلموا أن أبي لم يزرنا ولا ليوم واحد في المنزل، ولم أخبر أمي عن علاقتي بأبي، لكن كما يقولون (قلب الأم).

أخبرتني ذات صباح أنها قد رأت حلماً كنت فيه أجلس بجوار أبي على مدرجات الجامعة يحيط بنا طلاب كثر، وتحقق حلم أمي في نفس اليوم

الذي روت فيه الحلم، أسررتُ لأبي بما حدث فلم يتفاجأ بل ابتسم في سعادة وقال:

ـــ أمكِ يا حياة فيها شيء لله، عشان كدا بتشوف كتير، ما بقول مكشوف عنها الحجاب، لكن البركة تغشاها.

ومن يومها أدركتُ كل شيء، صرتُ أربط خيوط مفاصل حياتي بأحاديث أمي القليلة، أمسيتُ أكثر في طلب بركتها، وكانت تمنحني كل حبها بسخاء غير مشروط...

وتزوجا بعد هرم جدي وجدتي، لم يكن بالشيء الغريب بالنسبة لي، فالجميع يعلم أن هناك مودة خاصة بين جدتي عواطف وجدي شيخ الإمام، تزوجا في هدوء، كان صباحاً ماطراً صبيحة عيد الأضحى، الكمبو يرتدي سعادة أطفاله، كنتُ قد وصلتُ السنة النهائية في الكلية، أذكر جيداً بعد أداء صلاة العيد في ساحة المسجد، قام جدي بدعوة الجميع إلى منزلنا لتناول وجبة الغداء بمناسبة عقد قرانه على جدتي عواطف، مؤكد تدركون ما هو رد فعل المصلين، فيوم العيد كل الكمبو برجاله ونسائه وأطفاله يؤدون الصلاة... تلك الدعوة تكللت بالزواج، قابلتها أمي بسعادة غامرة وكذا أبي، ولم يتغير شيء فقط انتقل جدي للسكن معنا في البيت، وانتقلنا إلى الخرطوم جميعاً لاستكمال السنة النهائية...

مرت أربعة أعوام على دراستي ولا يزال أبي يبحث عن مغفرة من أمي، وما زالت أمي تتحين الفرص لتسألني عن أبي، عموما لم أخبرها عن تواصلي مع أبي ولم أرو ظمأها في إجابة شافية عن أبي، تعمدتُ افتراسها

بأسئلتي المتواصلة عن المفكرة وشخوصها، حاولت أن تعترف بوحدتها لكنها في كل مرة كانت تؤجل ذاك الاعتراف، تغلفه بدموع صامتة، كنتُ أتمزق لكن هدفي يسعى لإيجاد حياة جميلة لأمي بمغفرتها لأبي، ولربما بلقائهما سويا مرة ثانية، لم تكن حياة أمي لتسعد بمغفرتها لأبي فقط، كانت هناك الكثير من المغفرة المعلقة على مشجب الانتظار، أناس كثر ضمتهم مفكرتها، منهم من تحبه ولم تنجح في الإيفاء بحبها له، منهم من تكرهه ولم تجد متسعًا من الحياة لتخبره عن آلامها، فكرتُ كثيراً وأقدمتُ على مواجهة حياة الماضية... وكتبتُ نيابة عنهم ردوداً تليق بحياة سعيدة، بعثتُ برسائلها على طريقتي، نقلت كل كلمة إليهم... راسلتُ جدي وجدتي جمعت أواصرهم بحب أكبر، راسلتُ حمزة وسارة وجدتي والدة أمي، أخرجت صدقات باسمهم، شاركتُ أمي فسعدت أكثر، لكني لم أستطع أن أتجاهل ذاك النداء الخفي بين أمي وأبي...

لم أستطع انتحال قلم يبوح بحب أبي كما لم أستطع خرق معاهدة حبي لأمي، فكرتُ كثيراً، حاولتُ إيجاد حل يسعى لرمي حصاة صمتهم... ووجدت... لم أتدخل بشيء غير إرسال رسالة قديمة وجدتها في مفكرة أمي لأبي، وإرسال رسالة كنتُ قد كتبتها عن اعتراف أبي بحب أمي، تبادلتُ رسالتهما وبتُ في معركة حاسمة أنتظر نطقاً بالحكم، لم أكن بحاجة للكثير من الدراما حين أسلمتُ أمي رسالة أبي قائلة إنها من شخص مجهول وبذات الحجة أسلمتُ أبي رسالة أمي...

كلاهما لم يفتحا الرسالة أمامي، أمي عانقت الرسالة بخوفها لثلاثة أيام

متتالية، في اليوم الرابع فضت عذريتها ولم أستطع إمساك خيط يصلني لضفة أمي، أبي كذلك لم أستطع قراءة ملامح توتره وأضعها في ميزان يرجح فكري، أهو فرح أو خوف، لكن أبي كان أسرع فقد قرأ رسالة أمي في ذات يوم استلامها... مر الكثير من الأرق على ذاك التبادل وكل شيء يسير بخطوات وئيدة....

عدنا إلى الكمبو في الإجازة نصف السنوية تجهيزا للجلوس لامتحان التخرج، كان الأرق قد حطم أحلامي وأصبحتُ أكثر هزالاً، كان يوم جمعة، السماء رحيمة كعادتها، قفار الكمبو تصفر رياحها لاستقبالنا، المنازل هادئة، لم تكن لدي رغبة في الحديث، كنتُ أحس بخوف عظيم، أمي ظلت صامتة لم تحجب هواجسي بكلمة أو حركة، جدي وجدتي كعادتهم فرحين مبتسمين، كانت قد مرت أيام لم ألتق بأبي أو أتلقى منه اتصالًا، الوساوس قهرتني، أحسستُ بتأنيب الضمير على تدخلي في شؤون حب صامت...

لعلكم تترقبون لقاء سحاب بين أبوي ولكن ذاك اللقاء لم يحدث أبدًا، كل شيء مر بروتينه المعهود ولم يحدث جديد غير قرار جدتي بالبقاء مع جدي في الكمبو وبتنا وحيدتين أنا وأمي، أجزم لقد تفتحت أزهار أملي أمام وحدتنا فسقيتُ أزهاري بلقاء بين أبوي وللأسف لم يحدث شيء حتى تخرجتُ بمرتبة الشرف الأولى تؤهلني للمنحة السنوية إلى مدينة بيزانسون بفرنسا... كنتُ بين اتهامين أن أترك أمي أو أتخلى عن المنحة، حسمت أمي الأمر بقناعة، ودعتني إلى فرنسا وسافرتُ أحمل بين أهدافي دموعًا

مستجيرة خائفة، فلم يكن أبي يمسك بيدي ليقطع جسر الخوف، ولم تكن أمي تحصنني بعناقها، الرهبة من السفر إلى أوروبا، الخوف من المجهول ثم أمي وحياتي المعلقة بلا مشجب يطاردان مخيلتي...

أنا الآن أجلس في الطائرة أكتب رسائلي إلى حياة أمي، اعترافاتي بكل شيء، حبي لها وفخري بأبي، لا أدري أستصلهم هذه الرسائل أم سيكون مصيرها كرسائل أمي... أفرغتُ كل أحزاني في رسائلي تلك، وغفوت.

وصلتُ إلى مطار باريس وبيدي حقيبة دموع، الآن أقف في ساحة المطار مع أفراد بعثتي وحيدة أبحث عن باحة أتكئ عليها، لعلني أهتدي إلى شيء ما، سيارة أجرة تقف قربي... رجل أصلع من قابلنا في مكتب الإجراءات، هو زميل أبي يجلس في ود يشير عليّ بالانضمام إليهم وامرأة تبدو زوجته تجلس بجواره تعانقني بابتسامة... يرفع صوته زميل أبي قائلاً:

ـــ بنت المستر حياة أبوك وأمك وصوني عليكِ...

تحملتُ كل السعادة التي داهمتني على حين غرة، لكن قبل ذلك كنتُ قد رميتُ بآخر أحزاني ممزقة هواجس كثيرة... وحمدت الله على كل شيء، دار بمخيلتي الكثير من الأحداث الغائبة عني، ابتسمتُ في سعادة ورددتُ في سري هناك الكثير من الحياة لأحكيها لأمي حياة وأبي عثمان...

ابنتكم المحبة دائماً...

حياة بنت حياة

حياة عثمان مكي

شيء إليكِ يشدني لم أدرِ ما هو منتهاه
يوما أراه نهايتي... يوما أرى فيه الحياه

لـ«درويش».

وعلى هذه الأرض ما يستحق الحياة

لـ«درويش».

تمت بحمد الله

إيمان المازري

الخرطوم ــ يونيو 2016

شكراً...

لشقيقتي البهية ناهد، فقد وهبت حياة الكثير من التفاصيل، لصديقي وأخي حلمي إبراهيم لقراءته الشفيفة ليمنح حياة مودة شغف...
شكراً لحبكم

إيمان المازري

الفهرس

- الإهـــداء 5
- الرحلـة الثانية قبل الموت (حياة) 7
- الفصل الأول: 9

رســـالـــة إلى حمـــزة:

- الفصل الثـانـــي : 33

رسالة إلى سارة :

- الفصل الثالث : 59

رسالة إلى عثمان :

- الرحلـــــة الأولى الموت و(الحياة) 85
- الفصل الرابع : 87

رسالة إلى أبي:

- الفصل الخامس :..... 115

رسالة إلى أمـــي :

- الفصل السادس: 135

رسائل إلى حياة:

- شكراً... 163